الفصل السادس

الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم

امتازت معجزة رسول الله ﷺ الكبرى (القرآن الكريم) بكثير من المعجزات التى افتقدتها الكتب السماوية السابقة ومنها:

- أن هذه الكتب السابقة إنما نزلت كى تخاطب عقولا معينة لها فكر معين وثقافة محددة، ومن هنا جاءت نصوصها محدودة لاتصلح إلا لأهل الزمان الذى نزلت فيه هذه الكتب.

بينما نزل القرآن الكريم لكى يخاطب العقل الإنسانى أياً كان زمانه وأياً كان مكانه، ومن هنا امتازت نصوصه بعطائها الذى لاحدود له يأخذ منها أهل كل عصر ما يناسب حياتهم، فهى نصوص كلية صالحة للانطباق على جزيئات كثيرة، وفى الوقت نفسه يخاطب القرآن الكريم الناس على قدر عقولهم من غير مخالفة للحقائق العلمية، فيفهمون نصوص الآيات بقدر ما يتيسر لهم من العلم فى كل زمان.

- ومن هنا امتاز القرآن الكريم على هذه الكتب أيضا بالإعجاز العلمى، ففى عصر العلم والنظريات العلمية وجد المؤمنون من العلماء التجريبيين فى القرآن الكريم كثيراً من الآيات التى أثبتت نظريات علمية لم يعرفها العلماء إلا فى هذا العصر.

يقول المفكر الفرنسى موريس بوكاى «على عكس القرآن لا تشتمل التوراة والإنجيل على نصوص حول الظواهر الطبيعية التى يمكن أن تشكل - فى أى وقت من التاريخ الإنسانى - موضوعا جديراً بالملاحظة (...) فإن مثل هذه النصوص ينفرد بها القرآن حيث تم التعبير عنها بشكل يسمح لنا بمقارنة حقائق كثيرة بمعارفنا اللادينية»[1].

---

(١) راجع ص ١٥٩ من كتاب «ما أصل الإنسان».

– ومن العجيب أن القرآن الكريم يورد هذه الحقائق فى أسلوب حكيم خاص به. يفهم منه الناس وقت نزوله على قدر عقولهم، وما يبدو لهم فى الكون، ثم بتقدم العلوم والوصول إلى حقائق جديدة نجد آيات القرآن الحكيم تتفق معها، ولذا يتجدد إيمان الناس بإعجاز القرآن كلما ظهرت لهم حقائق جديدة يرون القرآن قد أشار إليها أو عبر عنها»(١).

بينما نجد أن هذا الإعجاز العلمى مفقود فى الكتب السابقة ومن هنا كفر الغرب النصرانى بدينه وكتبه حين ظهرت النهضة العلمية ولم يجد علماء الغرب فى دينهم ما يؤيد نظريات العلم الحديث، بل على العكس وجدوا فيه ما ينقض هذه النظريات ويهدمها، ومن هذا: النص على عمر الأرض فقد ادعت التوراة والإنجيل بأن عمر الأرض محدود لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين فى حين أن نظريات العلم الحديث وأبحاث علماء الفلك والجيولوجيا أثبتت أن عمر الأرض يقدر بالملايين، وكذلك حديث التوراة عن بداية خلق الكون وما أثبته من أخطاء علمية يهدمها العلم الحديث(٢).

وكان هذا هو سر الصراع الذى حدث بين الدين والعلم فى أوربا «فقد تمسك القساوسة والأحبار بنصوص بالية فى كتبهم دحضها العلم الحديث بينما تمسك العلماء المحدثون بما أثبته الواقع وبما أيدته المشاهدة، لدرجة أن برونو وجاليلو حينما اكتشفوا نظرياتهم الجديدة فى علم الفلك ودوران الأرض حول الشمس وإثبات كواكب أخرى تدور فى الفضاء وطلبوا من القساوسة أن يخرجوا معهم لمشاهدة هذه الحقائق العلمية رفض القساوسة أن ينظروا فى المجهر، وبدلا

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ١٧ محمد أحمد الغمراوى.

(٢) راجع ص ٤٠ – ٤٥ من كتاب القرآن الكريم والتوراة والإنجيل فى ضوء المعارف الحديثة وقارن ص ١٦ من كتاب (ما أصل الإنسان) لموريس بوكاى أيضاً حيث ينقل نصا عن المفكر المسيحى المشهور «جان جويتون» يقول فيه: «والأخطاء العلمية التى فى التوراة إنما هى أخطاء بشرية، لأن الإنسان فى الأزمان التى خلت كان كالطفل لجهله بالعلم». ويقول بوكاى أيضاً «كان الدين والعلم فى الغرب فى موقف التعارض وكانت الحجة وراء ذلك تكمن فى التناقض بين ما جاء فى النص التوراتى وبين المعلومات العلمية» قارن ص ٢١ من المرجع السابق.

من أن يتحققوا من اكتشافات العلم الحديث حكموا بالموت على (جاليلو وبرونو)، لأن ما أثبتوه من حقائق يخالف مانشأوا عليه من أباطيل التوراة وخرافات الإنجيل ولذلك امتاز القرآن الكريم بالإعجاز العلمى حيث دعا إلى دراسة الواقع ومشاهدته وملاحظاته وبذلك وضع أسس المنهج العلمى، بل زاد على ذلك بكشفه لكثير من حقائق العلم الحديث وتأييدها.

وفى ذلك يقول الفيلسوف الفرنسى الشهير «اليكس لوازن» «خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق، وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن الكريم وبين القوانين الطبيعية مع مانبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية»(١).

فإذا كان العلم فى العصور الوسطى المسيحية قد صار الخادم المطيع للإيمان الكنسى، يحاول أن يبرر نظريات الكنيسة الكونية الباطلة، فإنه قد أصبح مع الماديه الحديثة عدوا لدودا لهذا الإيمان حيث حطم كل نظريات الكنيسة السابقة، أما العلم فى الإسلام فهو يقف بين هذين المفهومين المتطرفين شامخا منسجما مع الإسلام(٢).

وقد ساعد الإسلام على ظهور العلوم الطبيعية بصورة أخرى وذلك من خلال دعوته لعقيدة التوحيد، فقد كان الشرك قبل الإسلام من أكبر العوائق فى سبيل البحث العلمى والعلوم الطبيعية حيث كانت مظاهر الطبيعة آلهة تعبد لا مواضيع تدرس وتبحث، فقد كان الإنسان المشرك يعتبر القمر معبودا، فكيف يجترىء على أن يطأه بقدميه، وكان ينظر إلى السيول على أنها قوة تستحق العبادة فكيف له أن يفكر فى توليد الكهرباء منها بعد تسخيرها.

أما الإسلام فقد حول كل هذه المقدسات إلى مواضيع للبحث والدراسة ففتح الطريق أمام البحث العلمى وهذا ما يعترف به المؤرخ الشهير أرنولد توينبى حين

---

(١) د. أحمد عزت - الدين والعلم - ترجمة طاهر حمزة ص ٢٤.

(٢) الإنسان فى الكون بين القرآن والعلم ص ١٧٠ د/ عبد العليم عبد الرحيم خضر - عالم المعرفة جدة.

يقول فى كتابه «موجز دراسة التاريخ «إن إحدى نتائج الثورة الفكرية التى برزت إلى حيز الوجود على أساس (التوحيد) أن الإنسان بدأ يلقى نظرة على عالم الطبيعة على أساس أنها مخلوق، وأن له أن يعلمه ويسخره»(١).

ومن هنا كان اهتمام العلماء المسلمين بإبراز الجانب العلمى فى القرآن الكريم، لكى يثبتوا من جديد أن القرآن كتاب لكل عصر ولكل زمان وليس معنى هذا أن التفسيرات العلمية للقرآن الكريم وليدة القرن العشرين فقط، فقد سبق أن نبه عليها بعض المفسرين القدامى ومنهم الرازى حيث أشار إلى كثير من النظريات الفلكية من خلال تفسيره للقرآن الكريم.

إلا أن اهتمام العلماء والمفسرين بهذه النواحى فى هذا القرن كان أكثر وخصوصا مع اكتشاف الكثير من النظريات العلمية.

وكان أهم من أبرز الجانب العلمى فى القرآن الكريم الشيخ طنطاوى جوهر فى تفسيره للقرآن الكريم وكانت هناك اللمحات العلمية التى أشار إليها المرحوم الأستاذ سيد قطب فى تفسيره القيم «فى ظلال القرآن».

وكذلك كتاب «المنتخب من تفسير القرآن» الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

كما كان للشيخ محمد عبده كثير من الإشارات إلى نظريات علمية، وأيضاً لا نستطيع أن نغفل ماكتبه المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه القيم «الإسلام فى عصر العلم» ولا ما كتبه الدكتور عبد الرزاق نوفل فى كتبه المتعددة وكذلك كتاب معجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى وغيرهم من العلماء الذين اهتموا بإبراز الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم.

قضية الإعجاز العلمى بين المؤيدين وبين المعارضين:

أثار موضوع إبراز الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم كثيراً من الجدل والأخذ والرد، فقد عارضة بعض العلماء والباحثين والغيورين على القرآن الكريم

---

(١) راجع ص ٩٢ من كتاب «قضية البعث الإسلامى» وحيد الدين خان ترجمة محسن الندوى طبع دار الصحوة للنشر والتوزيع سنة ١٩٨٤ القاهرة.

ومنهم الإمام الشاطبى صاحب الموافقات، واستاذنا الشيخ عبد العظيم الزرقانى والدكتورة عائشة عبد الرحمن وكثير غيرهم من الذين عارضوا بشدة محاولة إبراز الإعجاز العلمى لوجهة نظر خاصة سوف نعرضها ونناقشها.

وهناك فريق آخر عالج المسألة بتعقل فلم يرفض التفسير العلمى مرة واحدة، ولم يؤيده كذلك على إطلاقه وإنما وضع للمسألة قيودا وقواعد ومن هؤلاء د.محمد أحمد الغمراوى - الشيخ المراغى - د. عبد الرزاق نوفل - د. جمال الدين القندى - والشيخ الشعراوى والشيخ عبد المجيد الزندانى.

وهناك فريق ثالث : أطلقوا المسائل على عواهنها، وفتحوا الباب على مصراعيه دون تفرقة بين حقائق العلم وأوهامه وسوف نعرض فيما يأتى وجهة نظر الرافضين، ثم نناقشها بتوضيح القواعد والأصول التى وضعها المؤيدون.

المعارضون:

أنكر هؤلاء التفسير العلمى[١] للقرآن الكريم ووجهة نظرهم فى ذلك.

أولاً : الخوف من أن تفهم آيات الكتاب الكريم على غير وجهها الصحيح، فيفسر القرآن بالرأى المنهى عنه فى مناهج المفسرين.

ثانياً : أن نظريات العلم متغيرة وفى كل يوم يظهر الجديد، فلو أننا ربطنا آيات الكتاب الكريم بهذه النظريات لاهتز القرآن الكريم حين تكتشف نظريات جديدة تهدم النظريات السابقة، وبذلك يتعرض المسلم لفهم متناقض ومتغير لآيات القرآن الكريم مما يصل به إلى الشك.

وهذا ما يشير إليه المرحوم الشيخ عبد العظيم الزرقانى بقوله: «إن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة المد والجذر، وإن أبحاثا كثيرة منها لاتزال قلقة حائرة بين إثبات ونفى، فما قاله علماء الهيئة بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم وماقرره

---

(١) فرق بعضهم بين الإعجاز العلمى والتفسير العلمى، بأن التفسير العلمى هو إنتفاع المفسر بما ظهر فى عصره من معلومات كونية، فيستفيد بها فى تفسير الآية، أما الإعجاز العلمى فهو الحقيقة الكونية التى يئول إليها معنى الآية ويشاهد الناس مصداقها فى الكون، ونرى أنه لافرق بينهما.

علماء الطبيعة فى الماضى يقرر غيره علماء الطبيعة فى الحاضر، وما أثبته المؤرخون قديما ينفيه المؤرخون حديثا، وما أنكره الماديون وأسرفوا فى إنكاره باسم العلم، أصبحوا يثبتونه ويسرفون فى إثباته بإسم العلم أيضاً، إلى غير ذلك مما زعزع ثقتنا بما يسمونه العلم، ومما جعلنا لانطمئن إلى كل ماقرروه باسم العلم»(١).

ثالثا : أن القرآن كتاب هداية وإعجاز فقط، وليس من مهمته معالجة المسائل الكونية أو شرح المسائل العلمية(٢).

رابعاً : أن القرآن يجب أن يفهم على نحو ما أنزله الله للعرب المخاطبين به أول الأمر، وهذا هو رأى الإمام الشاطبى وبما أن الإعجاز العلمى غير داخل فى إعجاز العرب، فلا مبرر له.

يقول الإمام الشاطبى فى هذا: «أن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم (....) وهذا إذا عرضناه على ماتقدم لم يصح، وإلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدعى سوى ماتقدم، وماثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة (...).

ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر، لبلغنا منه مايدل على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم(٣).

وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب المرحوم الدكتور صبحى الصالح والذى يقول: «إن موضوع العلوم التى اشتمل عليها القرآن هى أدخل فى الفلسفة القرآنية منها فى بلاغة القرآن، وليست هى مادة التحدى لفصحاء العرب، وإنما تحداهم القرآن أن يأتوا بمثل أسلوبه(٤).

---

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ٢ صـ ٢٥٣

(٢) المرجع السابق صـ ٢٥٠.

(٣) الموافقات جـ ١ صـ ٨١.

(٤) د. صبحى الصالح مباحث علوم القرآن ص ٣٢٠.

خامسا : وتضيف الدكتوره بنت الشاطىء وجهة نظر جديدة وهى الخوف أن يتسرب إلى العقول أننا لو لم نفهم القرآن فهما عصرياً، أنه لن يقنعنا، ولن نسلم به لو فهمناه، كما فهمه الرسول وصحابته، كذلك تخشى أن يلتبس الحق بالباطل، والعمل بالدجل وهى تذكرنا بما حدث فى التاريخ قديماً من إدخال الإسرائيليات فى تفسير القرآن الكريم.

وتستشهد على ذلك بما يصنعه الدكتور مصطفى محمود من تفسير القرآن بنصوص من التوراه ورؤيا يوحنا اللاهوتى وكل هذا تحت محاولة الفهم العصرى للقرآن الكريم(١).

المؤيدون للإعجاز العلمى :

والواقع أن وجهة نظر المعارضين السابقة لها احترامها ولها مكانتها وخصوصاً إذا نظرنا إلى الغاية منها وهى الخوف على القرآن، وعلى عقيده المسلم التى ينبغى أن تظل ثابتة بمعزل عن احتمالات العلم، إلا أن المؤيدين للتفسير العلمى من المعتدلين والمتعقلين، لم يتركوا الأمور على عواهنها - كما صنع الفريق الثالث - وإنما وضعوا للتفسير العلمى قواعد وأصول حين يطبقهما المفسر أو العالم، تزول عنّا كل التخوفات التى أثارها الرافضون.

ومن هذه القواعد.

أولاً : ينبغى ألا نفسر القرآن الكريم إلا باليقين الثابت من الحقائق العلمية، وليس بالفروض أو النظريات التى لاتزال موضع فحص وتمحيص، ذلك أن الظنيات والحدثيات عرضة للتصحيح والتعديل إن لم تكن عرضة للإبطال فى أى وقت.

وللأسف الشديد لم يلتزم الفريق الثالث بهذه القاعدة فكتبوا بلاروية ولا تعقل وادعوا مالم يؤكده العلم، ومالم تثبته التجربة. وقالوا فى القرآن بغير علم

---

(١) راجع كتابها القيم - القرآن وقضايا الإنسان بيروت سنة ١٩٧٥ ص ٢٧٩، ٢٩٩.

ولاهدى، قالوا: إن فى القرآن معادلات كيميائية، ونظريات رياضية وهندسية، وعلوم جزئية[١].

وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه الدكتور مصطفى محمود وغيره من صغار الباحثين الذين لم يحصلوا من علوم القرآن وشروط الإجتهاد القدر الكافى لقولهم فى القرآن برأيهم.

وهو منهج مرفوض.

فمن المسلم به أن القرآن الكريم قد أمر بالبحث والنظر والإحاطة بكل معلوم، كما أنه قد عالج كثيراً من المسائل الكونية والعلمية ولكن ليس معنى ذلك أن نزعم إن كل ما تستنبطه العقول أو يصل إليه العلماء مطابق للكتاب مندرج فى ألفاظه ومعانيه، فإن كثيراً من آراء العلماء ونظرياتهم التى استنبطوها أول الأمر تعرضت لتغيير وتبديل، ونقض وهدم والقرآن أسمى وأكمل من أن نربطه بأفكار جزئية أو نظريات لم تتحول إلى قوانين علمية ثابتة لاتقبل الشك.

ويجب هنا أن نفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية:

فالنظرية عبارة عن فرض[٢] لتفسير بعض الظواهر الكونية وتعليلها، وقد تصدق بعض الوقت، ثم تتعرض للتغيير بعد ذلك، وتحل نظرية أخرى محلها على ضوء المتغيرات العلمية أما الحقيقة العلمية، فهى على عكس ذلك، إنها قانون ثابت غير قابل للتغيير ولا التبديل، نعم قد يمكن التعرف على سماتها بشكل أحسن، ولكنها تظل على ما كانت عليه من قبل[٣].

فإثبات أن الأرض تدور حول الشمس، وأن القمر يدور حول الأرض وأنه مظلم، وأن الكون محفوظ بقانون الجاذبية، وأن الإنسان خلق من علق، وأنه فى

---

(١) راجع فى هذا على سبيل المثال كتاب - القرآن محاولة لفهم عصرى للدكتور مصطفى محمود، وكتاب «قوانين الله وليست قوانين الطبيعة» ص ١١٢ محمود سراج الدين عفيفى.

(٢) راجع - أصول البحث العلمى ومناهجه ص ١٠٦ د. أحمد بدر - الكويت سنة ١٩٨٤ وقارن المنطق الحديث ومناهج البحث للمرحوم الدكتور/ محمود قاسم.

(٣) الشيخ محمد الشعراوى - الإسلام عقيدة ومنهاج ص ٤٨

مرحلة تكوينه يكون فى ظلمات، ثلاث، وأنه يتحول من نطفة إلى علقة إلى مضغة، كل هذه الحقائق علمية أثبتها العلم عن طريق الملاحظة الحسية والتجربة العملية، ولايمكن أن تتعرض لتغيير أو تبديل، لأنها أصبحت من قبيل القضايا الضرورية المنطقية، فهل إذا وجدنا فى القرآن آية كشفت عن هذه الحقائق وفسرناها بها، نكون قد جافينا المنطق السليم؟

كلا!!

إن الخطأ أتى من أناس لم يفرقوا بين العلم والظن، ولا بين الحقيقة والفرض، ونحن لانقبل بأية حال إخضاع القرآن لأى نظرية علمية مالم تتحول هذه النظرية إلى حقيقة علمية تختمر فى وعاء التجربة والملاحظة والإستنتاج والشمول والوضوح وأخيراً التطبيق، عندئذ نبحث عنها فى القرآن الكريم، فإذا وجدناها قلنا، إنها جزئية صادقة من معادلة كلية مطلقة فى قانون الله العام الذى وضعه فى كونه[١].

ثانيا : لا ينبغى فى فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التى تمنع من إجراء اللفظ على ظاهرة.

ويلاحظ أن مخالفة هذه القاعدة أدت إلى كثير من الآراء الخاطئة فى التفسير، ومن ذلك تفسير بعضهم لقوله تعالى «كانتا رتقاً ففتقناهما» بأن الرتق مجاز عن العدم والفتق مجاز عن الإيجاد والإظهار. فقد أثبت العلم الحديث أن السموات والأرض كانتا رتقا على الحقيقة أى كتلة واحدة، ثم فتقها الله على الحقيقة بمعنى فصلها[٢].

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن – الإنسان فى الكون بين القرآن والعلم ص ١١٤

(٢) راجع كتاب – ظواهر جغرافية فى ضوء القرآن الكريم ص ٢٨ للأستاذ إبراهيم حسن النصيرات – الأردن سنة ١٩٨٠، وهو كتاب قيم يعالج كثيرا من الظواهر الفلكية والجغرافية معالجة علمية يؤسس لها من القرآن الكريم – وراجع أيضاً المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٤٧٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر سنة ١٩٧٣.

ثالثاً : «يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها ولا العلوم إلى الأية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها».

وهذه القاعدة : نص عليها الشيخ المراغى عليه رحمة الله(١).

رابعاً : يشير المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى إلى أنه لابد من التزام المنطق الصارم فى المطابقة بين آيات الكتاب الكريم ومايتصل بموضوعها من الحقائق العلمية من الآيات.

ثم تفسر هذه الحقيقة فى ضوء كل ما يتصل بها؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا ينبغى أن يقتصر التفسير على آية واحدة فقط، قد لاتدل على الحقيقة من جميع جوانبها بل تحتاج إلى توضيح من الآيات الأخرى التى عالجت نفس الموضوع(٢).

وذلك أن الآيات العلمية فى القرآن الكريم لم ترد مجموعة فى مكان واحد وإنما تفرقت على حسب المقاصد الأساسية للقرآن الكريم وهى إثبات وحدانية الله والتدليل على قدرته وإبداعه.

ولو جمعت الآيات التى تتحدث عن حقيقة من الحقائق العلمية فى موضع واحد لتعذر فهمها - على المسلمين الأوائل - قبل تحصيل مقدماتها بالبحث العلمى، ولكانت فتنة للعرب، وأنى لعرب الجاهلية الأولى بفهم واستيعاب مقررات العلم الحديث اليوم، حتى يجمع لهم القرآن آيات الحقائق العلمية فى موضع واحد منه(٣).

فالقرآن الكريم كتاب معجز لم يأت على النظم المعتاد فى التأليف والكتابة، وإنما جاء بأسلوب فريد فى ذاته، وإذا كنا نسير على هذا المنهج فى معالجتنا لقضايا العقيدة أو المسائل الفقهية والتشريعية حيث نجمع كل ما يتصل

---

(١) د. محمد حسين الذهبى - التفسير والمفسرون نقلا عن تفسير الآيات الكونية للدكتور عبد الله شحاته ص ٨.

(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٩٩.

(٣) تفسير المنار المجلد السادس جـ ٢ صـ ٢٠.

بالموضوع الواحد من الآيات، ثم نجعل القرآن يفسر بعضه بعضا فإنه من الأولى أن نسير على نفس المنهج عند تفسير القرآن بنظريات العلم الحديث.

خامساً : وينبه الشيخ عبد المجيد الزندانى على قاعدة مهمة وخصوصا عندما يظهر التعارض بين النظريات العلمية وبين آيات الكتاب الكريم فيردنا إلى قاعدة المحكم والمتشابه ويقول[١].

إن المحكم من آيات الكتاب الكريم قطعى الدلالة والورود وأما المتشابه فهو ظنى الدلالة قطعى الورود.

وكذلك العلم ونظرياته منه: الظنى المحتمل وهو النظريات، ومنه القطعى اليقينى وهو الحقائق العلمية المشاهدة والمجربه.

ومن هنا فلا يمكن أن تتعارض آية قطعية من كتاب الله مع حقيقة علمية ثابتة.

١ – وإذا حدث تعارض بين آية قطعية وبين نظرية علمية فمرد ذلك إلى نقص فى العلم البشرى أو فى وسائله ومناهجه.

ومن ذلك التعارض بين نظرية التطور وبين آيات الكتاب الكريم التى تحدثت عن خلق الإنسان، وبالتالى لابد من الأخذ بالقطعى من كتاب الله والضرب عرض الحائط بالنظرية المنسوبة إلى العلم.

٢ – أما إذا حدث التعارض بين قطعى من العلم وظنى من القرآن كأن تكون الآية من المتشابهات التى تحتمل وجوها كثيرة ويفهمها كل إنسان على حسب مداركه وعلومه، فهناك آيات من القرآن حمالة لوجوه، فهنا لابد من مراجعة الفهم الذى عندنا لهذه الآية فهو لاشك فهم خاطىء وعلى وجه غير صحيح ومن ذلك فهم الذين أنكروا حركة الأرض ودورانها استناداً إلى فهم خاطىء لقول الله تعالى «والجبال أوتادا».

---

(١) محاضرة بجامعة الملك عبد العزيز.

فقالوا إن الأرض ثابتة بالأوتاد فهي لاتتحرك، ثم اكتشف علماء الجيولوجيا أخيراً أن الأرض طبقات، وأن الجبال أوتاد تثبت القشرة الأرضية التى يبلغ سمكها خمسة وثلاثين مترا بطبقة من الصخور المنصهرة والتي تمور وتتحرك فى باطن الأرض ومع ذلك فالأرض تتحرك حركات مختلفة. إذا فالخطأ هنا أتى من فهم خاطىء لآية من كتاب الله ومن ذلك أيضاً خطأ الذين أنكروا حركة الأرض حول الشمس استنادا إلى قول الله تعالى «والشمس تجرى لمستقر لها».

فقد فهموا من جريان الشمس أن الأرض لابد أن تكون ثابتة، دون أن يفطنوا إلى أن حركة الشمس لاتنافى حركة الأرض إذ أن لكل منهما حركتها فى مدارها.

ومن ذلك أيضاً فهم من قالوا بأن الأرض غير كروية إستناداً إلى قول الله تعالى «والأرض مددناها» دون أن يفطنوا إلى أن الامتداد المشاهد بالعين المجردة لاينافى التكوير لهذا الجرم الهائل.

٣ – أما إذا حدث التعارض بين ظنى من القرآن وظنى من العلم، فلابد من تقديم الظنى من القرآن وإهمال الظنى من العلم.

٤ – وإما الاحتمال الرابع وهو تعارض قطعى من القرآن مع قطعى من العلم فهو احتمال غير وارد، لأن صانع الكون هو منزل الآيات، ومنهج البحث العلمى حيث يتصف بالموضوعية وتتوفر له الوسائل المناسبة، لابد أن يصل إلى ما قرره القرآن من حقائق علمية[١].

– وأما ما أثاره المعارضون لإعجاز القرآن العلمى من أن القرآن كتاب هداية فقط ولا شأن له بالعلوم الكونية، فهي وجهة نظر مرفوضة، لأنه لا تعارض إطلاقا بين الهداية وبين ذكر المسائل الكونية أو الإشارة إلى الحقائق العلمية فذلك من أسباب الهداية.

فقد علم الله أن وسائل الهداية سوف تختلف من عصر إلى عصر تبعا لتدرج الفكر البشرى ونموه، وأن هناك فريقا من الناس سوف يحتجون بمقررات

(١) المؤتمر العلمى المنعقد بالقاهرة سنة ١٩٨٥ لبحث موضوع الاعجاز الطبى فى القرآن الكريم

العلم الحديث ونظرياته، فأراد الله سبحانه تعالى أن يكون هذا الكتاب هداية وإرشادا لكل إنسان مهما تكن ثقافته ومهما يكن فكره.

فالقدماء نظروا فيه فوصلوا إلى ماوصلوا إليه من إعجاز البلاغة والبيان، والمحدثون بحثوا عن العلم والكونيات فوجدوها فيه، إذا فلاتعارض بين كونه كتاب هداية وبين إشتماله على حقائق العلم.

ذلك أن القرآن الكريم هو كلمات الله المتلوه، والكون كلماته المجلوه، ولايمكن أن يكون هناك تعارض بين آيات الكتاب وحقائق العلم فكلاهما من وضع إله واحد، وإن حدث هذا فمردة إما إلى فهم غير واقعى لآيات الكتاب الكريم، وإما إلى فهم غير واقعى لحقائق العلم، حيث ينسجون من الوهم والخيال نظريات يدعون لها العلمية كما صنع داروين وماركس.

– وأما ما أشار إليه الإمام الشاطبى من وجوب الوقوف عند فهم العرب الأوائل للقرآن، ووافقه على ذلك الدكتور صبحى الصالح، فهو رأى غريب، ذلك أن القرآن لم ينزل كى يتحدى العرب وحدهم، وإنما لكى يتحدى الإنسانية كلها على اختلاف زمانها وثقافتها، ومدى إدراكها ولو كنا سنقف من القرآن هذا الموقف، لما استخرجنا منه علم الكلام وعلم الفقه والأصول والسياسة وغيرها فلم يصنع رسول الله ﷺ ولا صحابته هذا الأمر وإنما صنعه أهل القرون التالية.

ولا شك أن الإعجاز العلمى شأنه شأن أى علم من هذه العلوم السابقة، بل إنه اليوم أهم هذه العلوم.

– كما أن هذه النظرة المحدودة لآيات الكتاب الكريم إنما تتغافل عن طبيعة الآيات القرآنية المعطاءة المتجددة التى تفتح دائما المجال أمام العقل البشرى، فتدفعه إلى التفكير واستنباط الجديد، فآياته حية دائما لاتبلى ولاتخلق على كثرة النظر والاستنتاج منها مهما عمل فيها الفكر وأخذ منها العقل، وهذا هو جوهر الإعجاز القرآنى.

– وأخيراً فقد بقى أمامنا ما أثارته الدكتورة بنت الشاطىء من تحفظات وتخوفات تدل على غيرة حقيقة على كتاب الله.

والواقع أن بنت الشاطىء لها الحق فى موقفها هذا وخصوصا أنه جاء فى مواجهة المغاليين الذين جنحوا بتفسيراتهم العلمية جنوحا لا يقبله منطق حين حاولوا لى عنق الآيات وتفسيرها تفسيرا بعيدا عن الحقيقة، ومنهم الدكتور مصطفى محمود الذى حاول بفهمه العصرى للقرآن الكريم أن يستخرج منه كيمياء وبيولوجيا وعلم سدود وحشرات، علما بأنه غير متخصص إلا فى الطب، ولكنه حاول أن يصنع من نفسه - على حد تعبيرها - ساحرا وحاويا يعرف كل شىء عن كل شىء ويخرج ما يريده من الجراب[١].

غير أن خطأ بعضهم لاينبغى أن يكون حجة على العقلاء الذين عالجوا الإعجاز العلمى معالجة موضوعية، فلم يلووا عنق الآيات، ولم يحملوها ما لم تحتمل بل راعوا القواعد الموضوعة فلم يفسروا القرآن إلا بما ثبت يقينا من الحقائق العلمية.

ولا أظن أن بنت الشاطىء تخالف هذا المنهج المعتدل خصوصا وقد صرحت بأنه لامانع أن ينظر المتخصصون فيما يتفق مع اختصاصهم من آيات ثم يستخرجون منها قدرة الله.

تقول بنت الشاطىء: «لا أحد يجبر أى إنسان فى أن يفهم القرآن كما يشاء، ولكن المحنة أن يؤلف فيه من ليسوا من أهل الإختصاص، وتروج فى البيئة الإسلامية أقاويل وتأويلات مقحمة على القرآن نصاً وروحاً»[٢].

وأما خوفهم من فهم القرآن فهما علميا ومدى تأثيره على فهم الصحابة للقرآن، فإنه لا مبرر له فنحن لانرفض الفهم الصحابى، للقرآن، وإنما نعتبره الأساس ثم نضيف إلى ذلك طريقاً جديداً من طرق الإيمان، وليقتنع كل إنسان بما يناسب عقله وفكره وثقافته.

وهكذا فنحن لانعلق إيماننا بالتفسيرات العلمية، وإنما هى فقط لمزيد من الإيمان من جهة، ولإلزام المتشككين من المتمسحين بالعلم من جهة ثانية، أو على

---

(١) راجع صـ ٣٥٠ من القرآن وقضايا الإنسان وكذلك صـ ٣٦٦ ومابعدها

(٢) بنت الشاطىء - الإعجاز البيانى للقرآن الكريم صـ ٨٥.

حد تعبير الإمام فخر الدين الرازى ... «كلما كان وقوف الإنسان على دقائق هذه العلوم فى كتاب الله تعالى أكثر، كان اعتقاده فى عظمته وجلاله أكمل»(١).

وإن موقف المعارضين لإبراز الإعجاز العلمى ليذكرنا بموقف بعض علماء الدين قديماً والذين عارضوا الحقائق الرياضية والعلمية مثل الكسوف والخسوف وغيرها فواجههم الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) بقوله: «ومن ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار مثل هذه العلوم، فقد جنى على الدين وضعف أمره فإن هذه الأمور تقوم على براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها، إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه وإنما يسترب فى الشرع، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه، وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل»(٢).

وإذا فليس هناك مانع من إبراز الإعجاز العلمى مادام لايلوى عنق الآية ولايحاول الجرى وراء نظريات ظنية لم تثبت يقينا؟.

وهل من نصرة الدين أن يكذب أحدهم بدوران الأرض وصعود الإنسان إلى القمر؟

أم أن هذا هو الصديق الجاهل الذى يضر الدين أكثر من العدو.

إذاً فإبراز الإعجاز العلمى مطلوب اليوم وله كثير من الفوائد التى نحاول الإشارة إليها فى الأسطر التالية:

فوائد الإعجاز العلمى:

لهذا النوع من الإعجاز فوائد كثيرة منها:

١ - أنه يزيد المؤمن إيمانا بأن هذا الكتاب من عند الله فنحن نؤمن بإعجاز القرآن البيانى والبلاغى والغيبى ولكن حين نكتشف أن للقرآن إعجازا علميا

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٤ ص ١٢١.

(٢) راجع المنقذ من الضلال صـ ١١٥ نشر وتقديم د. عبد الحليم محمود.

يواكب العصر نزداد إيمانا بأن هذا الكتاب من عند الله تعالى، وتمتلىء النفوس بعظمة الله ومكانة هذا الكتاب الذى احتوى على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ماتصورها علوم الكون.

٢ - أنه يلزم المتشككين والطاعنين فى الأديان، ذلك أنهم يدعون التعارض بين الدين والعلم، ويقولون إن الدين لم يثبته العلم بعد، ومن هنا يأتى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ملزما لهؤلاء وضاحدا شبههم.

فهذا النوع من الإعجاز يعجز الإلحاد أن يجد موضعا للتشكك فيه إلا أن يتبرأ من العقل، ذلك أن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها الإنسانية إلا فى القرن العشرين والتى ذكرها القرآن، لابد أن تقيم عند كل ذى عقل دليلا محسوسا على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن الكريم.

٣ - أنه يساعد المسلمين على السير فى طريق العلم الذى قطع فيه أعداء الإسلام أشواطا بعيدة ومازال المسلمون فى بداية الشوط. فحين يشعر المسلم أن كتابه قد دعا إلى العلم التجريبى منهجا وعالجه موضوعا، لاشك أن ذلك يكون دافعا إلى السير فى طريق العلم التجريبى. فهذا واجب المسلمين اليوم حتى ينهضوا من كبوتهم ويعيدوا سنة آبائهم الأولين فى إهتمامهم بالعلم التجريبى ووصولهم من خلاله إلى كثير من الحقائق والمخترعات التى كان لها أكبر الأثر فى النهضة الأوروبية، فقد تقدمت الدنيا شرقا وغرباً وتأخر المسلمون، لأن الآخرين أخذوا بأسباب العلم ووقفنا نحن عندما انتهى إليه أجدادنا الأولون، مع غفلتنا عن قول الله تعالى «وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة» وقد أصبح العلم هو أساس القوة اليوم وأصبحت المخترعات العلمية هى صاحبة الفصل فى قضايا الساعة.

وإذاً فالعلم هو القوة التى ينبغى أن يعتمد عليها المسلمون اليوم بعد قوة عقيدتهم وإيمانهم.

وفى هذا يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالى: «إننا نحن - المسلمين - سوف نحاسب حسابا عسيراً على تخلفنا الفاضح فى العلوم الطبيعية، فالإنسان -

لكى يدافع عن المسجد الأقصى مثلا يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ، بل إلى الشمس، معرفة تهيمن على مافى الأرض ومافوق الثرى حتى نجارى معارف أعدائنا عن الكون، ونعد أنفسنا كما أعدوا أنفسهم، إن هذا التخلف إذا بقى فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء، وانني لأصيح دون موارية، بأن هذا التخلف جريمة دينية لاتقل نكراء عن جرائم الربا والزنا والفرار يوم الزحف»[١].

٤ – وفى إظهار الإعجاز العلمى للقرآن الكريم أسلوبا وطريقا جديدا من طرق التبشير بالقرآن الكريم بين غير المسلمين واستمالتهم إلى الإسلام. هذا الطريق العلمى الذى يؤمنون به وينكرون ماعداه وبذلك يساهم أصحاب هذا الإتجاه فى هداية الإنسانية الحائرة فى الشرق والغرب والتى ما تزال تبحث عن مرشد تطمئن إليه وتسلس له قيادها وليس هناك سوى القرآن هاديا ومرشدا.

فالإعجاز العلمى هو اللغة التى تنقل إعجاز القرآن إلى جميع اللغات وقد ثبت هذا الأمر عمليا من خلال المؤتمرات العلمية التى عقدت لمناقشة موضوع الإعجاز العلمى فى القاهرة والسعودية، حيث بهرت كثير من العلماء الغربيين مما سمعوه من الأبحاث العلمية التى قدمت فى هذه المؤتمرات والتى كشفت عن سبق القرآن فى تقرير كثير من الحقائق العلمية التى وصل إليها العلماء الغربيون.

ومن هؤلاء العلماء «مارشال جونسون» وهو من كبار العلماء فى علم الأجنة فى جامعات أوربا، فقد اندهش بعد أن سمع بحثا مقدما عن علم الأجنة فى القرآن وراح يردد (مش معقول؛ مش معقول) ثم فى النهاية اسلم وألقى محاضرة عن أطوار خلق الإنسان فى القرآن.

ومنهم أيضاً (روبارت ادوارد) صاحب عملية تلقيح الأنابيب الذى خرج من المؤتمر وهو يردد عبارة، مدهش، مدهش.

---

(١) من مقالة بعنوان الإنسان فى القرآن نشرت بمجلة الوعى الإسلامى الكويتية فى العدد ١٨٢ صفر سنة ١٤٠٠ هـ.

كذلك كان للإعجاز العلمى فى القرآن أثر كبير فى إسلام عالم الأجنة الفرنسى «موريس بوكاى».

وعالم البحار الفرنسى أيضا جاك أوسترى، وغيرهم كثيرون كان الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم سببا فى إسلامهم.

بل إن واحداً من هؤلاء وهو «أرثر ايلسون» بعد أن أعلن إسلامه فى أحد مؤتمرات الإعجاز العلمى فى القرآن راح يعاتب العلماء المسلمين ويقول لهم كيف يكون هذا العلم عندكم ولا تنشروه بيننا.

مجالات الإعجاز العلمى:

يظن بعضهم أن الإعجاز العلمى قاصرا على مقررات علم الفلك وعلوم الطبيعة وغيرها من المجالات التجريبية، ولكننا حين نفهم كلمة (علم) بمعناها الشامل، ندرك أن الإعجاز العلمى فى القرآن يشمل مجالات كثيرة، وعلوم عملية ونظرية، فقد اشتمل القرآن الكريم على أصول علوم التوحيد، والفقه وأصوله، والاقتصاد، والسياسة والإجتماع، والنفس، وسائر علوم اللغة، وعلوم الفلسفة والأخلاق، وأصول المنطق العقلى، ومناهج البحث العلمى[١] فضلا عن العلوم التجريبيه ودليلنا على ذلك الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقول الله تعالى «ما فرطنا فى الكتاب من شىء» وقوله «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء».

وأما السنة فقول رسول الله ﷺ ستكون فتن قيل وما المخرج منها؟ قال كتاب الله فيه نبأ ماقبلكم وخبر مابعدكم، وحكم مابينكم»[٢].

واخرج البيهقى عن الحسن قوله «أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة منها: التوراه، والإنجيل، والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان».

---

(١) راجع كتابنا العقيده الإسلامية صـ ٥٢ ومابعدها.

(٢) أخرجه الترمذى

إذاً فقد عالج القرآن الكريم كثيراً من مجالات العلوم إلا أن معالجته كانت فى إطار المنهج العام للقرآن الكريم والذى يتمثل فيما يأتى:

أولاً : أنه كتاب الكليات لا الجزئيات، ومن هنا كانت معالجته هذه العلوم معالجة كلية، ثم جاء العلماء وأخذوا هذه الكليات فبنوا عليها مابنوا من النظريات والحقائق الجزئية.

فالفقهاء أخذوا ماورد فى القرآن من أحكام الحلال والحرام ففرعوا عليها وبسطوا القول فيها، فكان نتيجة ذلك ظهور علم الفقه.

والأصوليون نظروا إلى مافيه من أدلة وبراهين والفاظ عامة وخاصة وظاهرة ومجملة، ومحكمة ومتشابهه، وأدلة واقيسه فبنوا على ذلك علمى أصول الفقة، والمنطق الإسلامى.

والفلاسفة المنصفون نظروا إلى مافيه من حقائق إلهية وكونية وإنسانية فكان من ذلك علم الفلسفة الإسلامية الذى هدم كل الفلسفات السابقة التى اعتمدت علي مجرد العقل غير المعصوم.

وعلماء الأخلاق نظروا إلى مافيه من أصول الفضائل والمقاييس الخلقية، فبنوا على ذلك علم الأخلاق.

وعلماء النفس نظروا إلى مافيه من أحاديث عن النفس الإنسانية وغرائزها وقواها، فكانت النتيجة ظهور علم نفس إسلامى أصيل.

وعلماء الإقتصاد نظروا إلى مافيه من القوانين الكلية التى تحكم نشاط الإنسان الإقتصادى ومعاملاته فوضعوا بناء على ذلك علم الإقتصاد الإسلامى.

وعلماء السياسة أيضاً استنبطوا مما ورد فى القرآن عن أصول العلاقة بين الحاكم والمحكوم، النظرية السياسية الإسلامية.

وكذلك قل عن علوم التوحيد والاجتماع وعلوم اللغة وغيرها.

واليوم ينظر علماء الأجنة والفلك، والطبيعة وغيرهم فى القرآن فيستنبطون مافيه من الحقائق العلمية ولاشك أن اتساع مجالات الإعجاز العلمى فى القرآن إنما شكل برهاناً آخر على أن هذا القرآن لايمكن إلا أن يكون من عند الله رب العالمين، إذ أن أصول هذه العلوم قد وردت على لسان رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب ولم ينشأ فى بلد اشتهر بالعلم أو التشريع. بل إنه كان بعيدا كل البعد عن هذه المجالات، فقد قضى ثلثى عمره بين الرعى والتجارة «ولم يتعلم البتة شيئاً من هذه العلوم. إذا فلامناص أمام العقل المنصف إلا أن يسلم بأن ذلك وحى الذى لاحدود لعلمه[١].

ثانيا : فصل القرآن بين طبائع العلوم ومناهجها:

- ففيما يتعلق بعلوم العقيدة التى ترتبط بالغيبيات التى لامجال للعقل فيها، حسم القرآن قضاياها حتى لايضل العقل فيها.

- وأما علوم الشريعة فقد أشار إلى كلياتها وترك للعلماء الاجتهاد فى الأحكام الكلية وتطبيقها على ما يستجد من الحالات الجزئية.

- وأما العلوم العملية والتجريبية، فقد كشف القرآن عن بعض حقائقها العلمية ولكنه لم يحدد قوانينها الجزئية ولا كيفية الوصول إليها، بل ترك الأمر كاملا للإنسان وأطلق فيه العنان لعقله وفكره ونظره يبدع ويستنتج كما يشاء، وقد أشار ﷺ إلى هذا فى حادثة تأبير النخل حين قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

وبهذا يطلق الرسول العنان لعقل الإنسان وعلمه وتجاربه فى المجالات العلمية.

ثالثا : العطاء المتجدد لكل عصر ولكل عقل فآيات القرآن الكريم لاينتهى عطاؤها أبدا، فلقد أخرج أبو نعيم عن عبد الرحمن بن زيادة قال «قيل لموسى عليه السلام ياموسى إنما مثل كتاب أحمد فى الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن كلما مخضته أخرجت زبدته».

---

(١) تفسير المنار جـ ١ صـ ٢٠٧.

فطبيعة المعجزة فى القرآن الكريم متجددة، لأنه خاتم الكتب الذى سيقيم الحجة على كل من بلغه من العقلاء، ذلك أن معجزة القرآن معجزة عقلية، يقول الله تعالى: «الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه»[١] أى أنزله وفيه علمه.

ولاشك أن موضوع العلم واهتمامات العقل تختلف من عصر إلى عصر على حسب حاجات الناس وظروفها، ففى عصور البلاغة والفصاحة والبيان كان القرآن هو المعجزة البيانية التى أفحمت أساطين البيان كما سبق أن بينا.

وفى العصر الحديث، عصر العلوم التجريبية والنظريات العلمية، وجه العلماء أنظارهم إلى القرآن الكريم فوجدوا فيه الكثير من الحقائق العلمية التى وصل إليها العلماء المتخصصون من خلال التجارب والأبحاث والمختبرات.

وليس هذا أمرا غريبا، إنما هى طبيعة القرآن الذى يحمل بين طياته دليل صدقه لأهل العصور على مر الدهور.

فقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال: «وقل الحمد سيريكم آياته فتعرفونها»[٢].

وقال: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»[٣].

وقال: «ولتعلمن نبأه بعد حين»[٤] وقال: «لكل نبأ مستقر سوف تعلمون»[٥].

فكل هذه إشارات تؤكد على طبيعة القرآن المعطاء الملزم للعقل الإنسانى أيا كانت ثقافته وأيا كان زمانه.

واليوم والعصر هو عصر العلم نجد القرآن الكريم يواكب العلم موضوعا، كما يواكبه منهجا، وهذا ما سوف نتناوله فيما يلى:

---

(١) النساء ١٦٦.
(٢) النمل ٩٣.
(٣) فصلت ٥٣.
(٤) ص ٨٨.
(٥) الأنعام ٦٧.

القرآن والعلم منهجاً وموضوعاً :

أفسح القرآن مجالا واسعا لحقائق العلم التجريبى وجعله أحد البراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ.

ولأمر ما أقسم الله فى سورة يس بالقرآن الحكيم على صدق رسالة محمد ، تلك السورة التى حوت كثيراً من الحقائق الكونية ومنها سير الأفلاك والكواكب، ومنازل القمر وجرى الشمس ودوران الأرض والتى أشار إليها بقوله «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون».

«والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم».

«والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم».

«لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون»(١).

وغير ذلك من الآيات التى كشفت عن الحقائق العلمية(٢) مما يؤكد على إهتمام القرآن بالعلوم الكونية.

والواقع أن القرآن إهتم بالعلم بمفهومه العام، فقد ذكره فى نحو سبعمائة وخمسين موضعا، دعا الإنسان من خلالها إلى البحث فى الكون من أصغر وحدة موجودة فيه وهى الذره إلى أكبر وحدة وهى المجرة فدعاهم إلى البحث فى الأنفس والآفاق، وإلى التفكير فى تكوينهم وتشريحهم وأصلهم وتطور خلقهم ونشأتهم، وفى الفلك والشمس والنجوم، وفى الحساب والتوقيت والموازين، وفى الفصول والأيام والسنين.

وفى الأرض، والنبات، والمطر، وحسبنا فى ذلك أن نذكر بعض الآيات الجامعة ومنها قوله تعالى «قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض»(٣).

(١) يس (٣٧ - ٤٠).

(٢) وراجع الآيات ٣٦ - ٨٠ من نفس السوره.

(٣) يونس (من ١٠١).

وقوله «وهو الذى مد الأرض، وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون»(١).

والواقع أن هناك آيات عديدة وجهت الأنظار إلى استكناه كل مظاهر الوجود من أجل معرفة القوانين التى تحكمها، بل اهتم القرآن بمنهج العلم ووجه إلى قواعد وأصول البحث العلمى، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما يأتى:

القرآن والعلم منهجا :

المقصود بالمنهج أى الطريقة التى يعتمد عليها العلم فى الوصول إلى حقائقه(٢).

والعلم إنما يعتمد على منهج البحث التجريبى الذى يقوم على أساس من الملاحظة وفرض الفروض واختبار صحة الفروض والتجارب ثم الوصول إلى القانون الذى يحكم الظاهرة «موضوع الملاحظة».

وهذا ما يسمى بالإستقراء العلمى.

ويقول العلماء إن هذا الإستقراء يقوم على أصلين.

الأصل الأول: هو قانون التعليل أو الحتمية الذى يقول: إن لكل ظاهرة فى الوجود علة توجب حدوثها، وأن نفس السبب يؤدى إلى نفس المسبب.

والثانى : هو قانون الاضطراد الذى يقول: إن العلل المتشابهه تحدث عنها معلولات متشابهة(٣).

وهذا ما سماه بعض العلماء بأصل اضطراد الفطرة واستقلالها فما ثبت أنه حق فى وقت ما سيكون دائماً حقاً.

---

(١) الرعد (٣، ٤).

(٢) راجع كتاب العقيدة الإسلامية للمؤلف ص ٥٢.

(٣) راجع ص ٢٢٣ من كتاب المنطق واتجاهاته القديمة والحديثة والمعاصرة للمؤلف.

ويضع العلماء التجريبيون للمنهج العلمى مبادىء منها:

- الاعتماد على البرهان اليقينى فى إثبات الحقائق ورفض الظن والتخمين.

- الموضوعية وعدم التأثر بالأشخاص مهما كانت مكانتهم.

- البعد عن الأهواء والأغراض الذاتية أثناء البحث العلمى.

هذا هو منهج العلم بمراحله وأصوله ومبادئه كما نص عليه أصحابه، والغريب أن القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك فى آيات صريحة وواضحة، أما عن الملاحظة للظواهر من أجل الوصول إلى القانون الذى يحكمها، فقد أشار إليها القرآن فى آيات كثيرة منها: قوله تعالى «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق»(١) وقوله «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت»(٢).

وقد أمر القرآن الكريم بملاحظة كل مظاهر الوجود ملاحظة حسية تجريبية فقال: «فارجع البصر هل ترى من فطور ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير»(٣).

واقرأ قول الله تعالى «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»(٤).

ففيها أمر صريح بالملاحظة والتدقيق فى ظواهر الكون وأحواله، فما دام الله ينعى علينا أن نعرض عن مظاهر الكون، إذاً فهو يريدنا أن ننظر ونتدبر ونقف على كل ظاهره كونية وقفة نستنبط منها شيئاً نفيد منه. وكل الظواهر الكونية التى استنبط العلماء منها فوائد للناس، كان الناس يمرون عليها وهم عنها معرضون، إذاً فالقرآن يلفت العقل إلى المنهج العلمى التجريبى بالنظر والمشاهدة

---

(١) العنكبوت ٢٠.

(٢) الغاشية ١٧ - ١٨

(٣) الملك - ٣، ٤.

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٥.

والسير فى الأرض بحثاً عن أسرار الكون والحياة ومظاهر عظمة الله فى الآفاق[١].

وفى فرض الفروض واختبار صحتها نقرأ محاورة إبراهيم عليه السلام لعباد الأصنام فى سورة الأنعام الآيات ٧٤ - ٨١ وفى الأصول التى يقوم عليها المنهج العلمى نجد قول الله تعالى «أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون» إشارة واضحة إلى قانون التعليل فكل مخلوق لابد له من خالق وكل سبب لابد له من مسبب.

- أما قانون الأطراد فقد كشف عنه القرآن الكريم فى آيات كثيرة منها: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم»[٢] فهذه الآية صريحة فى اطراد الفطرة وبقاء سنن الله فيها من غير تبديل للحقائق، والمقصود بالفطرة هنا الخلق والسنن الكونية سواء منها ما يتعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان أو مايتعلق بالإنسان من ناحية النفس والروح[٣].

وهذا القانون هو أساس المعرفة والعلم. والشك فيه معناه فوضى التفكير وهدم العلم[٤].

- وأما عن مبادىء البحث العلمى فقد نص عليها القرآن الكريم فى كثير من آياته.

- فمبدأ الإعتماد على البرهنة اليقينية ورفض الظن والتخمين يشير إليه القرآن بقوله «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» «ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه» «إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً».

---

(١) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى - الطريق إلى الله ص ٣.

(٢) الروم ٣٠.

(٣) الغمراوى - الإسلام فى عصر العلم ص ٦٣.

(٤) الواثق بالله عبد المنعم أحمد - المنطق ومناهج البحث العلمى ص ٥١.

- وأما مبدأ الاتساق فى الفكر وعدم الوقوع فى التناقض، فقد أشار إليه القرآن بقوله «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» فقد أشار جمهور المفسرين إلى أن المراد بالاختلاف هنا التناقض[١] وهو الذى وصف الله به كلام الكافرين فى قوله تعالى «إنكم لفى قول مختلف» أى متناقض.

- وكذلك يشير القرآن الكريم إلى مبدأ الموضوعية فى البحث العلمى وعدم التأثر بالأشخاص فيقول «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون».

«ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً».

ويقول القرآن الكريم على ألسنة المقلدين بغير تمحيص «وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً»[٢].

- وأما مبدأ البعد عن الأهواء والنزعات الشخصية فى أثناء البحث العلمى حتى لايكون لهذه الأهواء تأثير على الحقيقة، فقد أشار إليه الكتاب الكريم فقال: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون»[٣].

«ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون»[٤].

فهل من الممكن أن يكون ماقاله العلماء المحدثون عن المنهج العلمى أوفى مما ذكره القرآن؟

---

(١) راجع مفاتيح الغيب للرازى جـ ٦ صـ ٦١ وتفسير المنار للشيخ رشيد رضا جـ ٥ ص ٢٣٤.
(٢) الأحزاب ٦٧، ٦٨.
(٣) الجاثية ٢٣.
(٤) الجاثية ١٨.

كلا!! فلقد فصل القرآن الكريم أسس المنهج العلمى قبل أن يعرفه العلماء التجريبيون بقرون عديدة وإننى لأعد هذا السبق نوعاً من الإعجاز العلمى الذى ينبغى أن يضاف إلى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم(١).

القرآن والعلم موضوعا :

وكما دعا القرآن الكريم إلى روح العلم ومنهجه فقد بشر بكثير من الحقائق العلمية التى لم يكشف عنها النقاب إلا فى العصر الحديث ومنها حقائق عن بداية الكون ونهايته وحقائق عن نظام الكون وحركة أفلاكه، وإشارات إلى سنن الكون ونواميسه.

وحقائق أخرى متعلقة بالإنسان خلقا وتطورا، وسوف نفصل الحديث حول طائفة من الحقائق الإنسانية ثم نعقب عليها بطائفة أخرى من الحقائق الكونية والطبيعية :

الحقائق الإنسانية:

احتوى القرآن الكريم على كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الإنسان ومراحله وعلم وظائف الأعضاء وغير ذلك بل لقد دعا القرآن الكريم ووجه العقول والأنظار إلى البحث عن الإنسان وخلقه وتكوينه فقال: «فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق»(٢).

وأمر القرآن بالنظر ليس معناه النظرة العابره، وإنما النظرة المتأنية التى تخترق الحجب، وتستنتج النتائج الدالة على وجود الخالق الحكيم.

كما وجه القرآن إلى النظر فى النفس فقال : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون»(٣).

---

(١) راجع بالتفصيل «البحث العلمى ومناهجه النظرية» للمؤلف.

(٢) الطارق ٥، ٦.

(٣) الذاريات ٢١.

ولقد سبقنا علماء الغرب وبحثوا فى خلق الإنسان وتكوينه، وأثبتوا حقائق علمية أصبحت من المسلمات واليقينيات ولكن العلماء المسلمين حينما قارنوا بين ماوصل إليه هؤلاء وبين ماورد فى القرآن الكريم من حقائق إنسانية اكتشفوا أن القرآن الكريم قد سبق الأبحاث العلمية الحديثة بألف وأربعمائة سنة، ذلك أن علم الأجنة لم يقف على قدميه إلا فى بداية القرن العشرين. ومع ذلك فله أصول فى القرآن الكريم.

وسوف نشير إلى بعض الحقائق المتعلقة بخلق الإنسان ونوضح السبق القرآنى لها.

١ - حقيقة خلق الإنسان من علق:

وقد وردت هذه الحقيقة فى أول ما نزل من القرآن الكريم وهو قول الله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق» والعلق هو الحيوانات المنوية التى تسبب الحمل أو التلقيح، إذ هو الذى يسعى لدخول الرحم ثم يسعى لبويضة المرأة فيعلق بها.

وقال تعالى: «فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق».

وهذا الماء الدافق وهو المنى يسبح فيه ملايين من العلق ولولا العلق ماكان هناك حمل ولا ولادة.

ولقد وضع العلماء التجريبيون ماء الرجل تحت المجهر فشاهدوا فعلا هذا العلق وحركته السوطية بمساعدة ذنبه ورأسه، ولكن كيف رآه الرسول ﷺ ولم يكن حينذاك مجهر ولا آلات علمية؟ ذلك أن أول مجهر صنع فى ١٦٨٣ ميلادية أى بعد ألف سنة من نزول القرآن الكريم[١]. فسبحانك ربى لم يكن أحد على الإطلاق يعلم أن فى المنى علقاً يخلق منه الإنسان إلا أنت. وإذاً فالقرآن كلامك حقاً لا كلام البشر، فلم يكتشف العلماء هذه الحقيقة إلى بعد إختراع المجهر وبعد أبحاث طويلة ورسائل دكتوراه تتساءل عن العلاقة بين هذا العلق الذى

(١) نعمت صدقى - معجزة القرآن صـ ١٣٢.

يجرى فى المنى وبين نشأة الإنسان، وكانت هذه الرسائل تهدف إلى إثبات هل خلق الإنسان من هذه الكائنات؟ ولكن لم يفطن هؤلاء إلى أن الجواب على هذه الأسئلة قد نزل على رسول الله ﷺ من عند خالق الإنسان قبل ألف سنة من أبحاثهم «خلق الإنسان من علق».

٢ – حقيقة مراحل خلق الإنسان :

يقول الله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»(١).

وضعت هذه الآية موضع دراسة استغرقت فى الغرب النصرانى عشرات السنين، قام بها علماء «علم الأجنة».

ذلك أنه بعد اكتشاف المجهر والآلات الحديثة فى مجال الطب استطاع العلماء أن يتابعوا كيفية خلق الإنسان، فشاهدوا عملية الإخصاب التى تتم بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة فى أعلى القناة الواصلة بين المبيض والرحم. فيبدأ الإنسان خلية واحدة ثم تنحدر فى إتجاه الرحم مستغرقة فى رحلتها ما يقارب الأسبوع تكون خلالها قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتصق بجدار الرحم كأنها قطعة من اللحم الممضوغ وإن كان طولها لا يتعدى بُضعة مليمترات ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادى هو الغضروف الذى تترسب حوله مادة العظام فيما بعد ثم تنشطر الخلايا فى كافة أجزاء المضغة فتكون الأنسجة والأجهزة التى تكسو العظام المتكونة لحما.

فى كل المراحل السابقة لاتوجد فروق بين جنين الإنسان وجنين الحيوان ولكن ما أن يوشك الشهر الثانى على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية لهذا الجنين فإذا به خلق آخر.

---

(١) المؤمنون ١٢ – ١٤

كل هذا يتم فى القرار المكين الذى هو الرحم، وقد أثبت علم التشريح أنه فعلاً قرار مكين فهو فى أسفل بطن المرأة عبارة عن وعاء له جدار عريض سميك، وله أربطة عرضية ومستديرة، وهناك أجزاء من البريتون تشده إلى المثانة والمستقيم، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السقوط، فتطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل وتقصر إلى طولها الطبيعى تدريجياً بعد الولادة، وبعد كل هذا فهو محاط بحاجز متين من عظام الحوض تمنعه من الأخطار المفاجئة(١).

وفى آية أخرى يشير الله تعالى إلى تطور الخلق فى ظلمات ثلاث فيقول «يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث»(٢).

وقد اكتشف علم التشريح منذ أربعين سنة فقط أن الظلمات الثلاث هى:

١ – غشاء الأمنيون.

٢ – الغشاء المشيمى.

٣ – الغشاء الساقط(٣).

بل ويشير العالم الغربى «مارشال جونسون» وهو أحد كبار علم الأجنة فى جامعات أوربا إلى أن القرآن الكريم قد تعدى مرحلة الحديث عن الوصف العام لمراحل خلق الإنسان من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى مرحلة أكثر دقة وهى مرحلة وصف مستويات الخلق حيث تحدث عن مستوى الأنسجة والخلايا والوظائف التركيبية لمراحل خلق الإنسان.

وتوضيح ذلك أن علماء الأجنة قد اكتشفوا مستويات أربعة للخلق وكلها تحدث عنها القرآن الكريم وهى:

المستوى الأول : هو مستوى التقدير الذى يمر به الإنسان من خلال مرحلة النطفة، والنطفة تكون مجرد برنامج للإنسان. فيها كل ماسيكون عليه الإنسان

---

(١) سعيد حوى – الرسول ﷺ ص ٢٧٢.

(٢) الزمر ٦.

(٣) الإنسان فى الكون ص ٧

من صفات مثل الذكورة والأنوثة ولون العين والشعر وغير ذلك من الصفات، إلا أنها تكون فى صورة (جينات) أو ما يسمى بحاملات الوراثة، فهذه المرحلة هى مرحلة الشفرة الكيميائية التى سيسير عليها خلق الإنسان وتفاصيل ما سيكون عليه.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المستوى فقال: «قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره»(١). إذاً فالنطفة مقدرة كما قال العلماء وكما أخبر الله فى القرآن منذ قرون عديدة.

المستوى الثانى : مستوى التخليق، ففى مرحلة المضغة اكتشف العلماء أن النطفة تتكاثر وتتوالد وتكبر حتى تصير كأنها قطعة من اللحم الممضوغ بها مرتفعات ومنخفضات ووديان، وفى هذه المرحلة تتحول المواد الكيميائية بأمر الله إلى أجسام مادية حيث تظهر الأعضاء والأجهزة ولكن فى صورة براعم صغيرة وخطوط غير مجسدة إلا أنهم لاحظوا أن هناك جزءاً آخر من المضغة يظل فى صورة غير مخلقة وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حين قال: «يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة»(٢).

أى أن الإنسان مخلوق من هذه المضغة التى تجمع بين صفتى التخليق وعدم التخليق، وهذا ما اكتشفه العلماء من خلال الصور حيث أن المضغة تخلق فيها كل أجهزة الجسم كاملة ولكنها فى صورة بدائية مجرد خطوط ومعالم غير بارزة، ثم يبقى جزء آخر هلامى غير مخلق ومهمته مد الأجزاء الأخرى بما تحتاج.

وهنا تبدو لنا دقة الوصف القرآنى الذى يدل على أنه من عند الخلاق العليم.

المستوى الثالث : مستوى اكتمال الخلق والتصوير.

اكتشف العلماء أن الجنين فى نهاية الأسبوع السادس يدخل فى مرحلة الخلق والتكوين، فبعد أن كانت الأعضاء فى مرحلة التخليق مجرد خطوط وبراعم

---

(١) سورة عبس : ١٧ - ١٩.

(٢) الحج: من ٥.

تتحول إلى أعضاء واضحة المعالم حيث يظهر العظم فى صورة غضاريف لينة ثم يظهر اللحم والدم وتتجسد الأعضاء والأجهزة والسمع والبصر والجلد وغير ذلك، وهذا ما يشير إليه حديث رسول الله ﷺ «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها وعظامها ولحمها، ثم قال يارب أذكر أم أنثى»(١).

المستوى الرابع : هو مستوى التنشئة:

فى المرحلة السابقة نجد أن الأعضاء قد ظهرت ولكن ليس فى صورتها النهائية، حيث نجد اللحم شفافا، والدماء فى صورة ساذجة ليست هى الدماء الحقيقية، العظام لينة فى صورة غضاريف، الجسم والصورة والشكل ليست فى وضعها النهائى، والرئة لاتعمل وكذلك كثير من الأعضاء.

أما فى هذه المرحلة فتتحول الأعضاء إلى صورتها النهائية، فتصبح العظام صلبة، واللحم والدم وغير ذلك فى صورته الطبيعية، أو كما قال القرآن الكريم «ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» ولم يتحدث هذا العالم عن مرحلة أخرى وهى مرحلة نفخ الروح التى تتم بعد مائة وعشرين يوما كما أخبر الرسول فى حديثه الشريف، لأن العلم أعجز من أن يحدد طبيعة هذه المرحلة أو أن يكتشف خصائها، لقول الله تعالى «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»(٢).

إلا أن ما يلفت النظر هنا هو أن الذى قدم هذا الشرح السابق هو عالم غربى درس آيات القرآن بإمعان فوصل إلى ماوصل إليه، وبعد أن ألقى هذا التقرير السابق فى المؤتمر السعودى الطبى الثامن وقف رئيس قسم التشريح بجامعة «شانجهاى وقال آن الأوان لكى أعلن «أنه لا إله إلا الله».

وعن السبق فى مجال أصل الإنسان وعلم الأجنة، يقول موريس بوكاى «إن ما جاء به القرآن من بيان أصل الإنسان يثير دهشة كثير من الناس لاريب،

---

(١) رواه مسلم فى باب القدر عن حذيفة بن أسيد الغفارى.

(٢) الإسراء ٨٥.

تماماً كما أدهشنى أنا أيضاً حين اكتشفته لأول مرة وفوق ذلك فإن مقارنة النصوص القرآنية والتوراتية والإنجيلية - تكشف عن ذلك بصورة أوضح، فكلاهما يتحدث عن الله الخالق، إلا أن التفصيلات التى أوردتها التوراة فى وصف الخلق - وهى غير مقبولة علميا - لا وجود لها فى القرآن، أما القرآن فيحتوى حقاً على أيات بينات عن خلق الإنسان تدعوا إلى العجب وإعمال العقل، ويستحيل تفسير وجود هذه الآيات البينات بالمنطق البشرى - إذا وضعنا فى إعتبارنا مستوى المعارف السائدة وقت نزول القرآن، أما بالنسبة إلى الغرب فلم يسبق له أن تناول هذه الآيات البينات التناول العلمى حتى التاسع من نوفمبر سنة ١٩٧٦ وذلك حين قدمت إلى الأكاديمية الطبية الفرنسية بحثا عن المعطيات فى كل من علم وظائف الأعضاء، وعلم الأجنة التى عرض لها القرآن منذ أربعة عشر قرنا سبقت الاكتشافات العلمية الحديثة[١].

وهكذا يعترف هذا الباحث الغربى المنصف بسبق القرآن لنظريات العلم الحديث فى موضوع خلق الإنسان من جهة، وبصدق نظرياته فى مواجهة كذب نظريات التوراة من جهة ثانية.

وأخيراً وهو المهم اعترافه بأن القرآن من عند الله، إذ لايمكن تفسير هذه النظريات بالمنطق البشرى، وخصوصاً إن وضعنا فى اعتبارنا مستوى المعارف التى كانت سائدة فى صحراء الجزيرة العربية وقت نزول القرآن، وكأن بوكاى يريد أن يقول: كل هذا أثبته العلم فى العصر الحديث، فمن الذى علمه للنبى الأمى الذى نشأ فى صحراء الجزيرة العربية منذ هذه القرون المتطاولة؟

وقد يعترض بعض العلماء هنا بأن علم مافى الأرحام هو مفاتيح الغيب التى استأثر الله بعلمها لقوله تعالى: «ويعلم مافى الأرحام» فكيف يعلمه البشر؟

والجواب أن علم الله هو علم شامل بكل ما يتعلق بما فى الأرحام، فهو يعلم مستقبله وهل سيستمر فى خلقه أم سيسقط من الرحم، ويعلم أجله، ورزقه وعمله وأشقى هو أم سعيد ويعلم كل صغيرة وكبيرة تحدث له.

---

(١) راجع ص ٢١ من كتاب (ما أصل الإنسان) لموريس بوكاى - ط الرياض

أما ما وصل إليه الإنسان فهو علم محدود جزئى لايتعدى وصف المشاهدات فى مرحلة تحقق الحمل؛ وأما قبل ذلك وبعد ذلك فهو من اختصاص علم الله الذى لا يعلمه إلا هو.

٣ - حقيقة أن الجلد مركز الإحساس :

وصل علم الطب أخيراً إلى أن مركز الإحساس فى الإنسان هو الجلد وأن الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية ليست هى المركز الإساسى لذلك، بل إن الإحساس فيها ضعيف لدرجة أن الحرق البسيط الذى لا يتجاوز الجلد، يحدث ألما شديداً بينما الحرق الشديد الذى يتجاوز الجلد بعدما تأكله النار لايحدث ألما كثيراً على الرغم من خطورته(١).

يقول الكسيس كاريل «إن الجلد الذى يغطى السطح الخارجى للجسم غير قابل للاحتراق بواسطة الماء، والغازات».

كما أنه لا يسمح للجراثيم التى تعيش على سطحه بالدخول إلى الجسم (...) وعن طريق سطحه الخارجى يتصل الجسم بالعالم الكونى، وحقيقة الأمر أن الجلد هو مأوى كمية هائلة من أعضاء الاستقبال، يسجل كل منها تبعا لتكوينه الخاص التغييرات التى تحدث فى البيئة، فالخلايا القابلة للمس والمبعثرة على سطحه تحس بالضغط والألم، والحرارة والبرودة(٢).

وهذه الحقيقة العلمية كشف عنها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان حين قال: «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً»(٣).

هكذا تشير هذه الآية إلى أن النار كلما أكلت جلود الكافرين بدلهم الله بجلد غيره حتى يستمر الألم بلا انقطاع إذ الجلد هو مركز الخلايا الحسية عند

---

(١) د. عبد العزيز إسماعيل - الإسلام والطب الحديث ص ٦٦.

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص ٨٢.

(٣) النساء ٥٦

الإنسان، ولم يكن أحد يعلم بهذه الحقيقة العلمية يوم نزل القرآن إلا منزل القرآن وخالق الإنسان وهو الله سبحانه وتعالى.

علم البصمات:

انتهى خبراء البصمات وتحقيق الشخصية إلى أن بصمة الأصبع أدل على الإنسان من أى جزء آخر فيه فالوجه قد تحدث له عمليات تجميل تغيره، ولكن جلد الأصبع لو احترق وتكون مكانه جلد جديد، فإنه يظهر وبه نفس الخطوط والأشكال التى كانت فى جلده القديم، ويقول العلماء إن لبصمة الأصبع مائة من الخصائص من حيث أشكالها ومن حيث مواضعها، ولكى نعثر على رجلين يشتركان فى عشر من هذه الخصائص لابد من امتحان ألف مليون رجل.

وعلماء البصمات يبنون حسابهم على امتحان اثنتى عشرة خصيصة، اتفق عليها رجال الضبط والأمن بكل البلاد، ولن نجد اثنين يشتركان فى هذه الخصائص الاثنتى عشرة إلا مرة واحدة فى كل أربعة وعشرين (بليونا) من الرجال.

وهذه الحقيقة يكشف عنها القرآن منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، حيث يقول «أيحسب الأنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه»(١).

فهذه الآية الكريمة برهان قاطع على أن القرآن من عند الله، إذ من المحال أن يعرف الرسول ﷺ الأمى الذى نشأ بين جبال مكة أن لكل بنان من البشر رسوما تختلف عن الآخرين، وكيف يعرف هذا السر والمجهر لم يكن موجودا فى ذلك الوقت، إذا فالقرآن من عند الذى يعلم السر وأخفى – سبحانه وتعالى(٢).

والجدير بالذكر هنا أن هذه الآية كانت سبباً فى إسلام عالم ألمانى، حيث قال إن هذه الآية من عند الله تعالى وليست من قول بشر لأنها تشمل أسراراً

---

(١) القيامة ٣، ٤.

(٢) راجع ص ١٨٠ ومابعدها – كتاب معجزة القرآن – نعمت صدقى

علمية لم تكن معروفة فى زمن محمد ﷺ ولم تكتشف إلا فى القرن العشرين وهى طبعات الأصابع ومظاهر التوقيع[١].

- الحقائق الكونيـة :

وكما اشتمل القرآن الكريم على هذه الحقائق الإنسانية، فقد اشتمل على كثير من الحقائق الكونية التى كشفت عن آيات الله فى مجال الفلك، والطبيعة، وبداية الكون ونهايته - فضلاً عن إشارته إلى كثير من القوانين العلمية التى تحكم الكون.

وسوف نشير فيما يأتى إلى بعض الحقائق الكونية التى سبق القرآن فى تقريرها قبل أن يصل إليها العلماء بألف وأربعمائة سنة.

١ - بين بداية الكون ونهايته :

أثبت العلم الحديث أن الأجرام السماوية كانت كتلة واحدة ملتهبة، وأن السماء والأرض كانت متماسكة مع هذه الكتلة الكبيرة التى كانت تسير بين سحب غازية من الدخان يقول أينشتاين: «إن الدخان هو الضباب السحابى الذى تتكون عن زوابعه الأولى أول السديمات الوجودية وأكبرها[٢]. ثم حدث انفجار ضخم ترتب عليه انفصال الكواكب والمجرات واندفاعها بعيداً عن بعضها ثم بعد ذلك برزت الأرض وأصبحت مهيأة لحياة الإنسان.

كما أثبت أيضاً أن نهاية الكون سوف تكون كبدايته بانفجار ضخم يقع بين الأجرام السماوية ويعود الدخان كما كان عليه فى البداية[٣].

إلا أن القرآن الكريم قد كشف عن هذه الحقائق منذ أربعة عشر قرنا من الزمان.

---

(١) قارن ص ٣٢ من كتاب «كلمة الإنسان العليا» - حسين هادى الشربينى

(٢) راجع ص ٤٨ ومابعدها من كتاب مقالات فى العلم - البرت - اينتشتين

(٣) راجع ص ١٦٥ ومابعدها - كتب «من الآيات العلمية» د/ عبد الرازق نوفل

ففى الإشارة إلى الذرات الدخانية الموجودة قبل خلق السموات والأرض يقول الله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين»[١].

وفى الإشارة إلى تماسك السموات والأرض ككتلة واحدة يقول الله تعالى «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما»[٢].

وأما عن نهاية الكون فقد أشار القرآن الكريم إلى انفراط عقد كل مافى السموات والأرض حيث تنشق السماء وتنتشر الكواكب، وتتفجر مياه البحار وتتحول إلى نار، يقول الله تعالى: «يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب»[٣] «فإذا برق البصر، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر»[٤] ويقول: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا»[٥].

ويقول تعالى: «إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فجرت»[٦] وقد ظل المفسرون طويلا يقولون إن هذه الآيات تعبيرات مجازية تشير إلى أهوال يوم القيامة وأخيراً اكتشف عالم الفيزياء (يورى)-إمكانية انفجار البحار وتحولها إلى نار ملتهبة، حيث اكتشف نوعين من الماء يختلفان فى خواصهما باختلاف طبيعة تكوينهما، فالمعروف أن الماء مكون من اتحاد ذرتين من الأيدروجين وذرة أكسجين، وقد وجد أن الأيدروجين منه ذرات خفيفة تبلغ كثافته نصف كثافة الذرات الثقيلة وهى باتحادها مع الأوكسجين تكون ماء الشرب»[٧]، أما الذرات الثقيلة إذا اتحدت مع الأوكسجين كونت مايسمى بالماء الثقيل وهو سام، ومميت للكائنات الحية، وقد اكتشف أن هناك ذرات أيدروجين، (وهى عبارة عن غاز مشتعل) غير مستقرة فى جوف البحار وأنها إذا تعرضت

---

(١) سورة فصلت الآية ١١.
(٢) الأنبياء ٣٠.
(٣) الأنبياء/ ١٠٤.
(٤) سورة القيامة (٧ – ٩).
(٥) الفرقان/ ٢٥.
(٦) سورة الانفطار (١ – ٣).
(٧) عبد الرازق نوفل – الله والعلم الحديث ص ١٩٤ ط الشعب.

لأى ضغط كهربائى أو إشعاعى كصاعقة كبيرة من السماء فسوف تشتعل كل بحار الدنيا»[١].

وهنا يسبق القرآن الكريم نظريات العلم الحديث حين يقول «وإذ البحار سجرت» أى تحولت إلى نار مشتعلة.

كذلك يشير القرآن الكريم إلى وجود الدخان كعلامة من علامات الساعة فيقول: «فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم».

وفى ذكر الدخان كعلامة من علامات قرب قيام الساعة روى أبو مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ «إن ربكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال»[٢].

وإذا كان القرآن الكريم قد أكد على نهاية الكون مثبتا أنه ليس أزليا ولا أبديا، فإن العلم الحديث فى أحدث قوانينه يؤكد ذلك، فقد أثبت قانون الطاقة المتاحة – أن طاقة الكون فى تناقص مستمر وأنها لابد أن تصل إلى نهايتها حيث تنتهى الحياة، يقول (فرانك ألن) عالم الطبيعة البيلوجيه «إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة»[٣].

وهنا نصل إلى معنى قوله تعالى «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» وقوله «كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون».

---

(١) الإنسان فى الكون ص ٣٧٨

(٢) قارن ص ٣٨٩ من الإنسان والكون

(٣) راجع ص ٦ من كتاب الله يتجلى فى عصر العلم

النسبية فى الزمن:

أثبت اينشتاين أخيراً أن الزمن نسبى، وتختلف مقاييسه، من كوكب إلى كوكب، ذلك أنه مرتبط بدوران الكواكب حول نفسها وحول الشمس، وبما أن حركات الكواكب ودوراتها مختلفة[١] فلابد من إختلاف الزمان من كوكب إلى كوكب على حسب سرعة هذا الكوكب أو بطئه.

ويضرب اينتشتاين مثلا افتراضيا فيقول لو أن الإنسان استطاع أن يتحرر من جاذبية الأرض وقوانينها الخاصة وانطلق فى الفضاء الكونى فى مركبة فضائية تسير بسرعة الضوء (وهى أكبر سرعة أمكن للعلم قياسها حتى الآن وتستلزم تحول الجسم إلى شعاع غير مرئى، والدقيقة الضوئية تساوى ١١ مليون ميل فى الساعة، والساعة الضوئية تبلغ ٧٠٠ مليون ميل تقريبا، وأما السنة الضوئية فهى تبلغ ستة ملايين مليون ميل أى الرقم ٦ وعلى يمينه ١٢ صفر) لمدة سنتين ثم يعود إلى الأرض بعد عامين فقط من الرحلة الكونية، فيجد كل الأصدقاء من جيله قد ماتوا، ويجد سكاناً جدداً وحضارات فهذه المدة تساوى قرنين بحساب زمن الأرض[٢].

وهكذا ربط اينشتاين بين الأجرام[٣] فاستنتج نسبية الزمن.

---

(١) يدور كوكب «عطارد حول الشمس فى ٨٨ يوما وحول نفسه فى نفس المدة ويدور (الزهرة) حول الشمس ٢٢٤ يوما بينما تدور الأرض حول الشمس فى ٣٦٥ يوما تقريبا وحول نفسها فى ٥٦ دقيقة و٢٣ ساعة (والمريخ) يدور حول الشمس فى ٦٨٧ يوما وحول نفسه فى ٣٧ دقيقة و٢٤ ساعة (والمشترى) يدور حول الشمس فى إحدى عشرة سنة وستة وثمانين يوما، وحول نفسه فى عشر ساعات تقريبا.

أما (زحل) فيدور حول الشمس فى ٢٩ سنة وحول نفسه فى ١٠ ساعات، «وأورانوس» يدور حول الشمس فى ٨٤ سنة وحول نفسه فى إحدى عشرة ساعة تقريبا، (نبتون) يدور حول الشمس فى ١٦٤ سنة وحول نفسه فى ١٦ ساعة تقريباً.

أما بلوتو فيدور حول الشمس فى ٢٤٧ سنة، راجع كتاب (ظواهر جغرافية فى ضوء القرآن الكريم)، د. ابراهيم حسن النصيرات.

(٢) د. محمد عبد الرحمن مرحبا، اينتشتين والنظرية النسبية صـ ٨٠ دار القلم بيروت سنة ١٩٧٤.

(٣) النسبية من النظريات العلمية المعقدة التى تحتاج إلى عقول راقية وتعمق فى النظريات =

وحينما نعود إلى القرآن الكريم نجد كثيراً من الإشارات الواضحة إلى إمكان نسبية الزمن، وخذ على سبيل المثال قول الله تعالى «الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش»(١).

وقوله: «قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين»(٢).

فما مفهوم هذه الأيام ياترى؟ هل هى الأيام بحسابنا المعروف؟

كلا، لأن العلم الحديث يقول إن تكوين الأرض قد استمر مئات الآلاف من السنين.

كما أن القرآن يشير فى آيات أخرى إلى أن أيام الله غير أيام الناس فيقول: «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون»(٣).

= الرياضية وخلاصتها باختصار أنها أدخلت بعدا رابعا فى دراسة الكون والإنسان وهو الزمان وقد كان العلماء سابقا ينظرون فى الجرم إلى أبعاده الثالثة وهى الطول والعرض والعمق فهى تساوى الكتلة أو الحجم، إلا أن اينشتاين أثبت أن الأجسام مكونة من ذرات فى حركة دائمة وبما أن الزمن مرتبط بالحركة (إذ هو كما قال الفلاسفة الفاصل بين حركتين) إذا لابد أن يحسب حسابه عند دراسة الأجسام، فلانكتفى بالطول والعرض والعمق، بل لابد من إدخال عنصر الزمن أى عنصر السرعة التى تتحكم فى طول المادة وكتلتها وفى طاقتها وبالتالى فى مدة بقائها).

وتضرب مثالا بسيطا على هذا فنقول: إن أبعاد الإنسان المعروفة هى الطول والعرض والعمق ولكن إذا افترضنا أن هذه الإبعاد قد ثبتت فلم تتغير لمدة أسبوع من الزمان، فهل يمكن أن نصدق أن الشخص لم يتغير فيه شىء خلال هذا الأسبوع أم أنه قد تغير عمره وزادت أيامه مثلاً، وهذا المنزل الذى نراه منذ سنة هل هو حقيقة على ما هو عليه أم أن مرور الزمن قد غير فيه بعض الشىء، إذاً فالزمن شىء جوهرى يضاف إلى الكتلة إذا أردنا دراستها دراسة علمية صحيحة، وأى شىء موجود لابد أن يكون موجودا فى زمان ومالا دخل للزمن فيه من الحوادث لا وجود له، فلانستطيع أن نقول عن شىء ما حادث أنه موجود فقط، بل نقول موجود فى زمان كذا، وهذا ما سماه اينشتاين بالمتصل (الزمكانى) وبما أن الزمن مرتبط بدورة الأفلاك وحركتها إذا فهو نسبى.

راجع صـ ١١٤ من كتاب شواهد العلم فى هدى القرآن وصـ ٨٨ من كتاب اينشتاين والنظرية النسبية وصـ ٣٥٨ من كتاب قصة الإيمان لنديم الجسر.

(١) الفرقان: ٥٩.

(٢) فصلت : ٩.

(٣) الحج : ٤٧

ويقول: «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»(١).

كما يقول: «تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»(٢).

إذاً فوحدات الزمن نسبية ويختلف قياسها، ومع أن الله سبحانه وتعالى فوق الزمان لأنه خالقه إلا أنه يخاطب الناس على مقدار عقولهم، مما يجعل كلام اينشتاين عن نسبية الزمان ليس جديداً ولاغريبا على عقولنا مادام مرتبطا بدورات الأفلاك حول نفسها وحول الشمس(٣) ومدى سرعة أو بطء هذه الدورات(٤).

٣- حقيقة الحاجز الموضوع بين البحار:

أعلن (جاك أوستري) - وهو كبير علماء فرنسا فى علوم البحار - أعلن إسلامه أخيرا والسبب فى ذلك أنه كان يبحث فى خصائص مياه البحار وعندما وصل بأسطوله العلمى إلى مضيق جبل طارق الذى تلتقى عنده مياه البحر الأبيض بمياه المحيط الأطلنطى، وجد أن لمياه البحر الأبيض خصائص تختلف عن خصائص مياه المحيط الأطلنطى من ناحية الكثافة والملوحة والحرارة مع أنهما يلتقيان فراحوا يبحثون عن سر إختلاف هذه الخصائص فوجدوا أن هناك حاجزاً يفصل بين البحرين هو عبارة عن منطقة مائية تحمل شحنات كهربائية معينة تمنع من اختلاط أحد البحرين بالآخر، وتحفظ على كل بحر خصائصه

---

(١) السجدة: ٥.

(٢) المعارج: ٤.

(٣) راجع صـ ٤٧٦ وصـ ٧٠٧ من «المنتخب من تفسير القرآن الكريم».

(٤) تدور الأرض حول محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة وهناك كواكب أخرى تسير بسرعة أقل أو أكثر من هذه السرعة مما يترتب عليه اختلاف الزمن من كوكب إلى آخر، راجع كتاب - القرآن وبناء الإنسان - صلاح عبد القادر صـ ١٥ جدة سنة ١٩٨٢.

فتعجب من هذا الاكتشاف إلا أن أحد الباحثين المسلمين أخبره بأن هذه الحقيقة العلمية مذكورة فى القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وتلى عليه قول الله تعالى:

«مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان»[١]، وقوله «أمن جعل الأرض قرارا، وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى، وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لايعلمون»[٢].

وما أن سمع (جاك أوستري) هذه الآيات حتى أعلن إسلامه.

وفى عام ١٩٦٢ جاءت بعثة ألمانية إلى باب المندب لدراسة خصائص ماء البحر الأحمر وبحر العرب فوجدوا خلافا واضحا فى التركيب الكيمائى بين البحرين واكتشفوا المنطقة العازلة التى تمنع كل بحر منهما من أن يختلط بالآخر.

وهكذا أصبح هذا الحاجز حقيقة علمية اكتشفت فى هذا القرن ولكن كتاب الله قد كشف عنها قبل ألف وأربعمائة سنة[٣].

٤ - حقيقة كمون النار فى الشجر الأخضر:

أخبر القرآن الكريم أن النار كامنة فى الشجر الأخضر فقال:

«أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم»[٤].

وقال: «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون»[٥].

---

(١) الرحمن (١٩، ٢٠).

(٢) النمل ٦١.

(٣) نقلا عن محاضرة للشيخ الزندانى بجامعة الملك عبد العزيز.

(٤) الواقعة: ٧١ - ٧٤

(٥) يس: ٨٠.

وكان الناظر فى كتاب الله قديما حينما يمر على هذه الآيات، يفسرها تفسيراً مجازياً فيقول إن الشجر الأخضر بعد أن يجف ماؤه من الممكن أن يكون وقوداً للنار، فهو نار باعتبار ماسيكون، أو أنه شجر أخضر باعتبار ما كان - من باب المجاز المرسل.

ولكن يأتى العلم الحديث اليوم لكى يكشف عن السر الحقيقى فى تعبير القرآن فيقول: إن الاحتراق الذى يولد الحرارة والنار إنما يحصل من اتحاد «الأوكسجين مع الكربون» والكربون موجود بصفة عامة فى أجسام كثيرة ولكنه يوجد بصفة خاصة وأساسية فى النباتات التى تتكون أنسجتها من الكربون الذى يشكل الغذاء الوحيد للنباتات والأشجار[١]، وهكذا فالنار كامنة فى الشجر الأخضر الطرى المائى الذى لم يكن يتوقع أحد أن النار كامنة فيه، إذ النار ضد للماء فى نظرنا وكيف يخرج الضد من الضد؟ ولكن ليس لنا إلا أن نهتف بكل مشاعرنا ونقول: «تبارك الله أحسن الخالقين».

٥ - حقيقة أن التراب عامل من عوامل الطهارة والنظافة:

يقول الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون»[٢].

لقد أثارت هذه الآية فى الماضى كثيراً من الجدل، فقال أعداء الإسلام كيف يستخدم التراب فى التطهير وهو الذى يحمل مختلف أنواع الجراثيم والأمراض الفتاكة، وقالوا إن القرآن لم ينزل إلا بما يتفق مع البيئة العربية الصحراوية الخالية من البحار.

---

(١) راجع صـ ٣٦٠ من قصة الإيمان - نديم الجسر.

(٢) المائدة آية ٦.

وإذا بالعلم الحديث يأتى مصدقا لأحكام القرآن الكريم وهادما لشبه الجاحدين والمعاندين، حيث يكتشف العلماء أخيراً أن التراب قاتل للجراثيم ومبيد لها، وأنه يستحيل أن تعيش الجراثيم فى التراب.

بل بدأ العلماء يستخلصون العقاقير الطبيه من التراب ومنها:

«الستربتومايسين» و «الترامايسين» و «الاورميسين» و «الكلورديستين».

كما اكتشفوا أن مستخلصات التراب هى أنجع علاج لأمراض «الإلتهاب الرئوى» و «التيفود» و «الكوليرا» و «الأميبا».

وقال الدكتور «وطسمان» الروسى الأصل: إن التراب هو أعظم مطهر من الجراثيم(١).

ومن هنا نفهم مغزى حديث الرسول ﷺ «إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبع مرات احداهن بالتراب» حيث اكتشف العلماء أن فى لعاب الكلب جرثومة خطيرة لاتموت إلا بالتراب.

فمن الذى علم محمدا ﷺ هذه الحقائق العلمية؟

إن أى عاقل يحترم فكره ووعيه لايملك إلا التسليم بأن محمدا ﷺ هو رسول الله حقا وإلا فليعطنا المنكرون تبريراً واحدا يناقض ما أثبتنا.

٦ - حقيقة الإتساع المستمر فى الكون:

لقد اثبتت نظريات نيوتن واينشتاين من خلال نظرية النسبية أن الكون فى حركة دائمة تؤدى إلى ازدياد حجمه باستمرار، وكلما زاد حجم الكون ازدادت المسافة بين أجرامه(٢)، وتباعدت المجرات بعضها عن بعض وزادت سرعتها حتى تحتفظ بتوازنها ولا تخرج عن مدارها المرسوم «وكل فى فلك يسبحون».

---

(١) محمد سعدى المقدم - شواهد العلم فى هدى القرآن صـ ١٣٨.

(٢) راجع ص ١٦٥ من كتاب «قوانين الله وليست قوانين الطبيعة» محمود عفيفى - دار الفكر العربى.

وقد أثبت اينشتاين أن كل المجرات تبتعد عن بعضها بسرعة تتناسب مع أبعادها عنا وعن بعضها بعضا، وقد حسب العلماء معدل الإبتعاد بين المجرات وقد وصلوا أيضاً إلى أن كل هذه المجرات كانت مكدسة فى منطقة معينة من الفضاء منذ حوالى سبعة آلاف مليون سنة والكون فى اتساع مستمر تبعاً لحركة ابتعادها عن بعضها.

وقد استشهد العلماء على ذلك بظاهرة تعاقب الليل والنهار، فمعروف أن الليل والنهار يأتى من دوران الأرض حول الشمس فيصير الوجه الذى يقابل الشمس من الأرض نهارا والذى لايقابلها ليلا وكان من المفروض أن تظل الأرض نهاراً دائماً بحكم مايصل إليها من الشموس الكثيرة المنتشرة بين المجرات كالغابة الكثيفة والأرض بينها فكيف لم يحدث ذلك؟

هنا تجيب نظرية التمدد الكونى فهذه الشموس فى ابتعاد مستمر مما يعطى الفرصة لسيادة ضوء شمسنا على غيرها.

كذلك وصل العلم الحديث بمراصده إلى أن هناك عمليات ميلاد مستمرة لنجوم ومجرات، وهذا يدفع الكون إلى التمدد، لأن خلق المادة يؤدى بالتالى إلى مط الفضاء مطا كالبالون، وهذا يؤدى بالتالى إلى تباعد تجمعات المجرات بعضها عن بعض واتساع الفضاء باستمرار.

كما أثبت العلم أن الشمس تجرى فى الفضاء الكونى بمعدل (١٠٣.٦٧٠٠) ميل فى اليوم الواحد فى اتجاه كوكب «النسر الواقع» وذلك مصداقا لقوله تعالى «والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»(١).

وقوله «وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى»(٢).

ولا تجرى الشمس وحدها وإنما يجرى معها مجموعتها التى تحيط بها وهى كواكبها التسعة بما فيها الأرض حتى لايلحق أحدها بالآخر ويؤدى ذلك إلى

---

(١) يس : ٣٨.

(٢) الرعد : ٢.

صدام كونى[١]، قال تعالى «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون».

وإذا كان العلماء قد اكتشفوا هذه النظرية فى بداية القرن العشرين على يد اينشتاين ومساعده العالم العربى المسلم «مصطفى مشرفه» إذا غضضنا النظر عن ارهاصات (نيوتن).

أقول إذا كان العلماء قد اكتشفوا هذه الحقيقة فإن القرآن الكريم قد أشار إليها إشارة لطيفة بقوله تعالى «والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون» نطق بها محمد ﷺ منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وما قرأ فى حياته حرفا واحداً من علم الفلك، وما عرف حتى كل العلماء والفلاسفة السابقين شيئا عن نظرية تمدد الكون» فمن أين لمحمد بهذه الحقائق؟ لايمكن أن يكون ذلك إلا من عند الله خالق الكون، إن أى عالم طبيعى منصف حين يقرأ هذه الآية وما ورد حول النظرية من آيات أخرى تؤيدها وتشرحها لايملك إلا أن يؤمن بحق بأن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز، وأن محمدا ﷺ هو النبى الخاتم.

حقيقة تعدد العوالم والافلاك:

وقد وردت هذه النظرية فى أول آية من آيات الكتاب الكريم «الحمد لله رب العالمين» والإعجاز هو فى كلمة (العالمين) التى فاجأت العرب من ناحية جمعها وهم لا يعلمون إلا عالما واحداً هو الذى كانوا يعيشيون فيه وقد حاول المفسرون القدامى حل هذه الأشكال فقالوا هى عوالم الإنس والجن والملائكة وقالوا هى عوالم الحيوان والنبات والجماد.

ثم جاء علم الفلك الحديث بمراصده وتحليلاته الرياضية فاكتشف أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ليست فى هذا العالم المجرى شيئاً مذكورا، وبين أن هناك عوالم مجرية أخرى مترامية الأبعاد تعد بالملايين[٢].

(١) راجع كتاب الإنسان فى الكون صـ ٣٤٧ ومابعدها صـ ٣٦٠.

(٢) الإسلام فى عصر العلم صـ ٢٦٠ وقارن صـ ٧٩ من كتاب «شواهد» العلم فى هدى القرآن للأستاذ محمد سعدى المقدم

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق بلفظة واحدة هى «العالمين» وجدير بالذكر أن نسجل هنا لفخر الدين الرازى ارهاصاته فى التفسير العلمى للقرآن الكريم فقد قال عند تفسيره لجملة (رب العالمين»: ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلاء لانهاية له وثبت بالدليل أنه تعالى قادر على جميع الممكنات، فهو قادر على أن يُخلق ألف ألف عالم خارج العالم، بحيث يكون كل واحد من تلك العوالم أعظم وأجسم من هذا العالم، ويحصل فى كل واحد منها ماحصل فى هذا العالم من العرش والكرسى والسموات والأرض والشمس والقمر.

بل يحاول الرازى أن يدحض آراء المعارضين فى إثبات هذه الحقيقة فيقول: ودلائل الفلاسفة فى إثبات أن العالم واحد دلائل ضعيفة ركيكة مبنية على مقدمات واهية ثم يستشهد بقول أبى العلاء المعرى.

يا أيها الناس كم لله من فلك

تجرى النجوم به والشمس والقمر

هين على الله ماضينا وغابرنا

فمالنا فى نواحى غيره[1] خطر[2]

قانون الجاذبية:

لقد تساءل الإنسان قديما عن الأرض كيف تدور فى الهواء مع مجموعة الأفلاك التى تدور معها، وماهى القوة التى تمسكها عن السقوط والانحدار، وكان الجواب قديما أن هذه الأرض محمولة على قرن ثور هو الذى يمسكها وأما فى العصر الحديث فقد وصل نيوتن بعد أبحاث وتجارب عديدة إلى أن هناك قوة خفية موجودة فى هذا الوجود هى التى تمسكه من السقوط والاصطدام وهذه القوة سماها «بالجاذبية» هى التى تجعل الشمس تمسك بالأرض وسائر الكواكب

(١) أى غير الله من أنواع الموجودات. ومعنى ذلك أننا لسنا شيئاً مذكورا بالإضافة إلى مخلوقات الله.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ صـ ١٥.

وتجعلها تدور فى مدارات محددة وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا القانون بقوله «خلق السموات بغير عمد ترونها»(١).

وقوله: «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها».

ويعجب الإنسان من إعجاز الأسلوب والمعنى فى هذه الآيات، فلو أنها قالت «من غير عمد» فحسب لكان ذلك نفيا مطلقا للعمد مرئية وغير مرئية والنفى مطلقا يخالف الواقع الذى علم الله أنه سيهدى إليه عباده بعد نحو ألف وخمسين عاما من نزول القرآن الكريم.

كذلك نلاحظ الإشارة إلى قانون الجاذبية فى قوله تعالى «ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا وجعلنا فيها روراسى شامخات»(٢).

ففى كلمة كفاتا إشارة إلى أن هذا القانون إذ معناها (الجذب والضم).

ومنه قول الشاعر:

كـــــرام حين تنكفت الأفـــاعى إلى أحـــجـــارهن من الصـــقـــيع

ولقد مر العرب الأولون على هذه الآية ففهموا منها مايمكن فهمه على قدر عقولهم، فقد أدركوا أن الأرض للإنسان كالوعاء تحفظ مافيها وتحميه وتحرسه، ثم مر علماء الفلك وعلماء الأرض على هذه الآية فاستنبطوا منها قانون الجاذبية حيث قالوا إن الإنسان إنما يستقر على الأرض بقوة خفية تجذبه إليها وإلا لما أمكنه الاستقرار.

والجدير بالذكر أن العالم الطبيعى ابن قره المتوفى ٢٢٨ هـ قد أشار إلى هذه المعانى قبل أن يكتشفها نيوتن بقرون عديدة.

وقد أشار الشيخ محمد عبده فى تفسيره لقول الله تعالى «أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها» إلى هذا القانون فقال: «إن الله سبحانه وتعالى جعل كل كوكب

---

(١) لقمان : ١٠

(٢) المرسلات الآية ٢٧.

من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة وشد هذه الكواكب برباط الجاذبية العامة»[١].

غير أن الفرق بين فكرة نيوتن عن قانون الجاذبية وبين معالجة القرآن لهذا القانون (فرق شاسع)؛ ذلك أن نيوتن وأتباعه يدعون أن هذا القانون موجود بذاته ويعمل بذاته بلاموجد ولاصانع ومن هنا فالكون أزلى أبدى.

أما القرآن الكريم فقد كان منطقيا حين أشار إلى أن هذا القانون له واضع وله موجد هو الله سبحانه وتعالى فهو الذى يمسك به السموات والأرض أن تزولا وهو القادر على سلبه من الوجود فتتزلزل الأرض وتتشقق السماء وهنا تكون الساعة والحساب يقول الله تعالى:

«ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم»[٢].

والاستثناء فى الآية يشير إلى أن السماء ستقع على الأرض عندما يأذن الله بذلك يوم القيامه التى ستكون بنسف الجبال وانفطار السماء وطمس النجوم «إذا السماء انشقت» «إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت» «إذا زلزلت الأرض زلزالها» نعم كل ذلك سوف يكون حين يسلب الله تعالى هذا القانون من الوجود فينفرط عقده.

حقيقة كروية الأرض ودورانها :

كان الناس قديما يظنون أن الأرض مبسوطة وممتدة وثابتة ولكن لم يخطر لأحد على بال أن هذه الأرض كروية وأنها تتحرك، وجاء العلماء المحدثون واكتشفوا عن طريق المراصد والمجاهر والآلات العلمية الحديثة أن هذه الأرض كروية تشبه بيضة النعام.

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٦٥. وقارن ص ١٣٤ من كتاب «من الآيات العلمية» د. عبد الرازق نوفل.

(٢) الحج : ٦٥.

وقد أعلنت بعض الجهات العلمية أن الأرض أشبه بحبة الكمثرى وأن أقرب الأشكال إليها هى البيضة فلاهى بالمفرطحة كثيراً ولاهى بالمكورة تكويراً تاما[١].

كما اكتشفوا أن هذه الأرض فى حركة مستمرة تدور حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، ومرة حول الشمس فى كل عام.

ومافطن أحد إلى أن القرآن الكريم قد أثبت هذه الحقائق قبل أن يكتشفها العلماء المحدثون بقرون عدة، غير أن الكتاب الكريم ليس كتابا فى الفلك أو فى أى علم جزئى آخر حتى يفصل النظريات العلمية، فالقرآن كتاب جامع، حوى كل شىء ومن هنا اكتفى بالإشارة دون العبارة وبالتلميح دون التصريح.

وفيما يأتى من آيات نجد إشارات وتلميحات إلى هذه الحقيقة العلمية.

يقول الله تعالى «يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا»[٢] «ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل»[٣] «خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل»[٤].

إن هذه الآيات الثلاث تؤكد لنا أن الأرض تدور حول نفسها فينتج من ذلك الليل والنهار، لأن نصف الأرض يكون تارة مواجها للشمس وتارة أخرى فى ظلام الكون.

وكلما كان نصفها مواجها للشمس مستمتعا بضوئها أى فى نهار كان النصف الآخر فى ظلام أى فى ليل وهكذا دواليك، ينقلب الوضع بدوران الأرض حول نفسها فيتراوح سطحها بين ليل ونهار، أى بين ظلام ونور يتعاقبان وقد دل على ذلك القرآن الكريم بهذه الإشارة اللطيفة «يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا» فهما يتبادلان المكان لدوران الأرض حثيثا حول نفسها.

---

(١) عبد الرازق نوفل – الله والعلم الحديث صـ ١٢٨.
(٢) الأعراف : ٥٤
(٣) الحج : ٦١.
(٤) الزمر : ٥.

وقد بين سبحانه أن الأرض كروية وأنها كذلك تدور حول نفسها في قوله «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» والكور هو إدارة العمامة على الرأس أى لفها[١].

وهذا صريح فى أن الأرض كروية، لأن كل من الليل والنهار يلتف على الأرض مستديرا كما تلتف العمامة حول الرأس مستديرة وهكذا يلتف الظلام على مكان النور حينما يلتف النور على مكان الظلام ويدور كلاهما على سطح الأرض ويجرى كلاهما وراء الآخر بحركة دائرية هى حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس.

وهناك آية أخرى تشير إلى هذه الحقيقة فتقول «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا»[٢].

جعل الله تعالى ضوء الشمس دليلاً على دوران الأرض حول نفسها ولذا ترى الظل يمتد من شرق لغرب ثم يمتد من غرب لشرق فيطول ثم يقصر ويقصر ثم يطول لأن الأرض تدور ولو كفت الأرض عن الدوران على محورها لكف الظل عن الامتداد وظل ثابتا فما حركة الظل إلا من حركة الأرض[٣].

وإذا كان علم الفلك قد أثبت للشمس حركة سريعة قدرها بنحو اثنى عشر ميلا فى الساعة. فإن القرآن قد أشار إلى ذلك حين قال: «والشمس تجرى لمستقر لها» فالجرى أدل على السرعة من المشى أو السير وكل هذا إعجاز علمى للقرآن الكريم إذ لم يكن الرسول ولا أحد غيره وقت نزول القرآن على علم بهذه الحقائق إذاً فالقرآن من عند العزيز العليم الذى وسع علمه كل شىء.

حقيقة نقص الأوكسجين فى طبقات الجو العليا:

اكتشف العلماء حديثا وبعد اختراع الطائرات أن طبقات الجو العليا خالية من الأوكسجين إذ يشعر الصاعد لهذه الطبقات بصعوبة فى التنفس وضيق فى

---

(١) راجع تفسير المنار جـ ١ صـ ٢١١.

(٢) الفرقان : ٤٥.

(٣) راجع ص ٤٢ من كتاب «من الآيات العلمية» د/ عبد الرزاق نوفل – مطبعة الأنجلو القاهرة.

الصدر ولذلك استخدموا أجهزة التنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة وكل هذا يشير إليه القرآن الكريم اشارة لطيفة فيقول «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام؛ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء»(١).

حقيقة الزوجية فى كل شىء:

ظاهرة الزوجية بين الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات أمر معروف مشاهد ولاغرابة فيه ولكن حين يقول القرآن الكريم: «ومن كل شىء خلقنا زوجين». ومن المتعارف عليه أن كل إذا أضيفت إلى نكره عمت كل أفرادها - أقول حين يشير القرآن إلى حقيقة الزوجية فى كل شىء ويدخل الجمادات هنا تكون الغرابة. ولكن بعد التقدم العلمى فى العصر الحديث اكتشفوا فعلا أن كل ذرة فى الوجود حتى الجمادات مكونة من جزئين، أحدهما موجب والآخر سالب وبالتجاذب للكهربى تتكون الذرة.

يقول الشيخ سيد قطب عليه رحمة الله ورضوانه: «التعبير - فى هذه الآية يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية، وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأن فكرة عموم الزوجية حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلا على عموم الزوجية فى كل شىء حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير»(٢).

ألا فليخبرنا هؤلاء الملحدون من الذى أدرى محمداً - صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق؟ ومن الذى جعله يعبر هذا التعبير الدقيق «ومن كل شىء»؟

إنه الله الخالق لكل شىء والعالم بكل شىء سبحانه وتعالى عما يشركون.

هذه بعض الحقائق العلمية التى أشار إليها القرآن الكريم ولو أردنا أن نستقصيها لاحتجنا إلى كتابة مجلدات ولكننا نكتفى بما ذكرنا ونحيل من يريد

---

(١) الانعام : ١٢٥.

(٢) فى ظلال القرآن الجزء السادس صـ ٣٣٨٥

الإستزادة إلى الكتب القيمة التى تخصصت فى هذه المجالات ومنها الكتب التى أشرنا إليها فيما سبق.

ولكن قبل أن ننتهى من هذا الفصل ننبه إلى أن معالجة القرآن للمسائل العلمية الكونية لم تكن مقصودة لذاتها فالقرآن ليس من مهمته عقد فصول أو أبوبا لشرح مسائل كيميائية أو معادلات جبرية أو نظريات هندسية إنما المقصد الأساسى للقرآن هو هداية الناس إلى طريق الحق وماذكره من الكونيات والحقائق العلمية إنما كان على طريق الهداية ودلالة ظواهر الكون على وجود موجدها.

ولذلك رأينا فيما سبق أن الأسلوب الذى اختاره القرآن للتعبير عن هذه الحقائق العلمية كان أسلوبا بارعا جمع بين إعجاز البيان وإعجاز العلم فى آن واحد بحيث يمر النظم القرآنى على سامعيه فى كل عصر فيفهم منه الناس مايناسب عصرهم وحياتهم باختلاف مالديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون.

مرت الآيات على المفسرين القدامى ففهموا منها مايناسب عصرهم وفكرهم ومرت على العلماء المحدثين ففهموا منها مايناسب فكرهم وثقافتهم وهذا سر من أسرار القرآن الكريم فهو عطاء لاينتهى أو كما أخبرنا المصطفى ﷺ «لايخلق على كثرة الرد ولاتنقضى عجائبه».

وسوف يظل القرآن الكريم ملائماً للعلم فى تطوره والحياة فى تقدمها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.